عادات حول العالم

تأليف

محمد جميل

عادات حول العالم

Customs Around the World

تأليف: محمد جميل محمد حسن

باحث دكتوراه تخصص الأدارة

ماجستير إدارة الأعمال

الإصدار الأول نوفمبر ٢٠٢٥

حقوق الطبع والنشر © محمد جميل محمد حسن، ٢٠٢٥. جميع الحقوق محفوظة"

ملخص كتاب "عادات حول العالم "

في هذا الكتاب، لا تقرأ فقط عن عادات الشعوب، بل تسافر بينها.

من شوارع طوكيو الصامتة، إلى ساحات مدريد الصاخبة، ومن طقوس الزواج في كوريا، إلى رقصات الأرجنتين المليئة بالشغف، ومن المجالس العربية الدافئة، إلى الأسواق الأفريقية النابضة بالحياة... يأخذك هذا الكتاب في رحلة إنسانية وثقافية تكشف لك أن العادة ليست مجرد تكرار، بل بصمة خفية على هوية الإنسان.

لكن الرحلة لا تتوقف عند الحكايات، بل تتعمق في السؤال :ما علاقة كل هذا بالتسويق؟

هنا يكمن قلب الكتاب: كل عادة تحمل مفتاحًا لفهم السلوك الشرائي، والعلاقات، و اتخاذ القرار. من فهم العادات، تنبثق أنجح الحملات، وتُبنى أكثر العلامات التجارية قربًا من الناس. يسلّط الكتاب الضوء على قصص حقيقية لحملات تسويقية فشلت لأنها تجاهلت الطقوس، وأخرى نجحت فقط لأنها احترمت التفاصيل الصغيرة في ثقافة الناس.

"عادات حول العالم "ليس دليلًا تقليديًا، بل مرآة نرى فيها الإنسان قبل المستهلك، والقصص قبل الإعلانات، والقلب قبل السوق.

المحتويات

المقدمة ..... ت

الفصل الاول ١

آسيا الهادئة... حيث تنحني الأرواح قبل الأجساد ١

الفصل الثاني ٢١

أوروبا – بين الشرق والغرب... حين تصنع الجغرافيا مزاج الإنسان ٢١

الفصل الرابع: ٩١

العالم العربي– حيث تُروى العادة كأنها سيرة ذاتية..... ٩١

الفصل الخامس: ١٣١

تحت خط الشمس: حكايات من قلب أفريقيا جنوب الصحراء ١٣١

الفصل السادس ١٦٤

كيف تصنع العادة سلوكًا؟..... ١٦٤

المقدمة

خلال سنوات عملي وتخصصي في مجال التسويق، وبين أروقة التجارب والبيانات، كنت أبحث دائمًا عن مفتاح حقيقي يساعدني على فهم المستهلكين بشكل أعمق. لم يكن هدفي مجرد تحسين نتائج الحملة الإعلانية التالية، أو زيادة معدل التفاعل على إعلان ما، بل كنت أبحث عن تلك اللحظة الخفية التي يقرر فيها الإنسان أن يقول "نعم"... أو "لا". اللحظة التي لا تُقاس بالأرقام، لكنها تُبنى على شعور، أو قيمة، أو عادة.

ومع مرور الوقت، ومع كل تجربة، وكل مشروع، وكل سؤال لم يجبني عليه السوق مباشرة، بدأت ألاحظ أن هذا المفتاح لم يكن في تقارير المبيعات، ولا في خوارزميات الإعلانات، ولا حتى في دراسات السوق المتكررة. بل كان في مكان أبسط، وأعمق في الوقت ذاته: في عادات الشعوب. تلك التفاصيل اليومية التي لا ينتبه لها أحد، لكنها تقول كل شيء. كيف يأكل الناس؟ كيف يحيّون بعضهم؟ كيف يعبّرون عن الامتنان؟ كيف يرفضون دون أن يقولوا "لا"؟ وكيف يقررون الشراء،

أو الامتناع عنه، من دون أن يشرحوا الأسباب؟ كل تلك الأمور الصغيرة، التي تبدو بديهية، هي في الحقيقة مرآة كاملة تعكس طريقة تفكير الإنسان، وكيف يختار، وكيف يتفاعل.

من خلال دراستي المتكررة، وشغفي العميق بثقافات العالم، وطموحي الذي لا يتوقف، وتجربتي الطويلة في التسويق، تأكدت تمامًا أن المسوّق الناجح—أيًا كان مكانه في العالم لا يمكنه التأثير في السوق، ولا أن ينجح في إيصال رسالته، دون أن يفهم جيدًا كيف يعيش الناس، وما الذي تعنيه لهم العادات والتقاليد. لأن الرسائل التي تُكتب على الورق لا تصل دائمًا، أما الرسائل التي تُكتب بلغة العادة، فتدخل مباشرة إلى القلب.

العادات ليست مجرد تصرفات موروثة، أو طقوس تُؤدى لأن الجيل السابق فعلها. العادة، في جوهرها، هي اختصار طويل لتجربة شعب كامل. هي طريقة مجتمع في ترتيب الفوضى. مرآة لهويته، ومفتاح سلوكي دقيق يؤثر على قرارات الأفراد، اختياراتهم، أسلوبهم في التواصل، وحتى استجابتهم لإعلانات وعروض وعلامات تجارية. العادة تقول للآخرين من نحن... حتى من دون أن نتكلم.

ومن هذا المنطلق، قررت أن أجمع بين شغفي بالثقافات، وتخصصي في التسويق، لأقدّم لك هذا الكتاب: رحلة ثقافية ممتعة ومثيرة حول العالم، تبدأ من الشرق وتنتهي في الغرب، تمرّ بعادات غريبة، وقصص مدهشة، وتحليلات تسويقية ذكية. رحلة لا تعتمد على التصنيفات التقليدية، بل على الفضول، والرغبة في الفهم، والانفتاح على الاختلاف.

سنستكشف سويًا العادات الآسيوية بكل رمزيها الدقيقة، و انضباطها الذي يتسلل إلى كل تفصيله من تفاصيل الحياة اليومية. سنقف على أعتاب الصين القديمة، ونأكل بهدوء في بيوت اليابان الخشبية، ونر اقب حفلات الزفاف في الهند كأنها أساطير تمشي على الأرض. ثم ننتقل إلى أوروبا، لنتأمل كيف تعيش الشعوب بين الرقي والنظام، بين الفردية والانتماء. ومن هناك، نطير إلى أمريكا اللاتينية، حيث لا تنفصل الحياة عن الاحتفال، وحيث تتكلم الموسيقى بلسان الناس. ثم نغوص في نبض أفريقيا، حيث لكل عادة جذور، ولكل رقصة ذاكرة. وأخيرًا، نعود إلى حيث بدأ كل شيء بالنسبة لي: إلى العادات العربية، والشرق الأوسط، ذلك الفضاء الذي يجمع بين الكرم والحنين، وبين الشرف والهوية.

هذا الكتاب لا يقدّم لك مجرد معلومات، بل يفتح نافذة لفهم الإنسان من زاوية مختلفة؛ زاوية العادة، باعتبارها أداة ثقافية وسلوكية، وأحيانًا تسويقية أيضًا. ستحمل معك من هذه الصفحات أدوات للفهم، لا للوصف فقط. ستقرأ، ثم تبدأ برؤية ما حولك بطريقة جديدة. ستلاحظ ما لم تكن تلاحظه من قبل، وستفهم لماذا نحتاج في التسويق أن نعرف العادات قبل أن نكتب الرسائل.

فأهلاً بك في هذه الرحلة... رحلة في الإنسان، عبر عاداته، وأسئلته، ومجتمعاته، رحلة لا تُقرأ فقط، بل تُعاش مع كل صفحة.

الفصل الاول

آسيا الهادئة... حيث تنحني الأرواح قبل الأجساد

لطالما شدّتني تلك البقعة من العالم التي يُقال عنها إنها "الشرق الأقصى". لم تكن مجرد تسمية على خارطة، بل كانت بالنسبة لي أشبه بأسطورةٍ لم أكن أعلم إن كانت تنتمي للو اقع أم للخيال. لا أعلم إن كان بعدها الجغرافي هو ما منحها هذا السحر الغامض، أم أنها الأرواح التي تسكنها منذ آلاف السنين، تحفظ العادات كما تحفظ المعابد البوذية صلوات الصباح الباكر، وكأن الزمن هناك يسير على إيقاع مختلف، لا يستعجل شيئًا، ولا ينسى شيئًا.

حين بدأت أقرأ عن اليابان، لم يلفت نظري قطارها السريع، ولا ناطحات السحاب في طوكيو، ولا تلك الصور البر اقة التي يتسابق الغرب على تداولها. أسرني ذلك المشهد البسيط: رجل ينحني برأسه أمام آخر، في صمت تام، كأنما ينحني احترامًا لظلّه لا لذاته. تلك الانحناءة، في ظاهرها تحية، وفي باطنها ثقافة كاملة لا تُقال بالكلمات.

فيها من التواضع أكثر مما في مئة محاضرة، ومن الاحترام أكثر مما في ألف خطاب.

تخيلت نفسي و اقفًا هناك، في ركن من شارع قديم في كيوتو، تحت شجرة كرز تتساقط أزهارها كأنها ندف حنين، أراقب الناس يمرّون، لا أحد يرفع صوته، لا أحد يركض، ولا يُشير بيده. كل شيء يُدار بلغة هادئة ناعمة لا يفهمها إلا من عاشها. هناك، لا تبدأ اللقاء بكلمة، بل بزاوية الانحناءة. زاوية التحية ليست تفصيلًا؛ هي مرآة لترتيبك الاجتماعي، مدى قربك من الشخص، ومقدار الاحترام الذي تحمله له. وفيها شيء من الفن، وشيء من الفلسفة، وشيء من الطقوس القديمة التي لم تتخلّ عنها الأرواح التي تسكن الجزر.

ثم وجدتني أغوص أعمق، في طقوس الطعام. على طاولة خشبية بسيطة، منخفضة، وأطباق صغيرة مُرتّبة بدقة تكاد تُرهبك من لمسها. هناك، الطعام ليس وجبة... بل طقس. عليك أن تحترم كل شيء: الطبق، الملعقة، ترتيب الألوان، نكهة الزنجبيل، ورق الأعشاب، صوت المرق حين يُرشف. نعم، الرشف هناك ليس قلة ذوق، بل علامة امتنان للطاهي، إشارة ضمنية تقول له: لقد أتقنت. كل تفصيل على المائدة له

معنى. حتى موضع العيدان الخشبية، لا يُترك عشوائيًا، بل يوضع بدقّة كما توضع الزهور في مزهرية سيراميك.

ومن مشهد إلى مشهد، تنقلك اليابان بين عادات تبدو في ظاهرها غريبة، لكنها، في حقيقتها، حارسة لذاكرةٍ طويلة لا تزال حيّة. كيف لمجتمع يحتضن أكثر التقنيات تطورًا أن لا يزال يتمسك بطقوس تقديم الشاي، بأربعة انحناءات، وبكلمات تُقال بهمسة؟ كيف يمكن لعادات من القرن السادس أن تعيش جنبًا إلى جنب مع الذكاء الاصطناعي؟ في العالم من حولنا، القديم يُهمل لصالح الجديد، لكن هناك... الجديد يتأدب أمام القديم، ويقف له احترامًا.

والأعجب... أن الشاب الياباني، الذي يرتدي بذلة حديثة ويحمل هاتفًا متطورًا، لا يخجل من تلك العادات، بل يتعامل معها كأنها امتداد طبيعي لذاته. ليست العادة عبئًا عليه، بل هويّة. لم أشعر يومًا أن التقدم والتقاليد يمكن أن يتصافحا بهذه الأناقة. هناك، لا تناقض بين الحداثة والأصل. هناك، التكنولوجيا تُستخدم بصمت، والهوية تُحمل باعتزاز، بلا استعراض.

أدركت أن العادات التي تصمد في وجه الزمن ليست بالضرورة تلك التي تُفرض بالقانون، أو تُدرّس في المدارس، بل تلك التي تعيش في الوجدان، وتتنفس في تفاصيل الحياة اليومية. في اليابان، كل شيء يُدار بصمت. حتى التعليم. المعلم لا يصرخ، والطالب لا يقاطع. هناك خشوع غريب في الفصول الدراسية، كما لو أن العلم عندهم ليس معلومة تُحفظ، بل قيمة تُقدّس. حتى الكتاب، لا يُرمى على الطاولة، بل يُوضع برفق. وكأن كل شيء يجب أن يُعامل باحترام، حتى المعرفة.

وفي الزواج، ليس البذخ هو عنوان الفرح، بل التفاصيل. مراسم لا تبدأ بالغناء، بل بقرع الطبول القديمة، بثوب أبيض بسيط، بزهور موسمية لا تُختار عشوائيًا، بل تُنتقى بعناية، لأن لكل زهرة رمزية، ولكل موسم نغمة خاصة. هناك، حتى الوردة تعرف متى تزهر، ولماذا.

وحتى الموت، هناك، لا يُعامل كفقد، بل كعبور. هناك طقوس لتوديع الروح، ورسائل تُوضع في النعش، وكأنهم يعلمون أن الراحل سيقرؤها في طريقه. لا بكاء عالٍ، بل صمت طويل، ونظرات تقول أكثر مما تقول الكلمات. كما لو أن الحياة كلها تدريب على توديع من نحب، وعلى شكرهم قبل الرحيل.

ذلك الشرق البعيد، ليس غريبًا كما كنا نظن. إنه فقط مختلف. مختلف بطريقة تحثّك على التواضع، وتجعلك تعيد التفكير في تفاصيلك الصغيرة. هل نعيش نحن عاداتنا، أم أن عاداتنا تعيش فينا دون أن ندري؟ هل فقدنا الإحساس بالأشياء لأننا فقدنا الإحساس بالزمن؟

منذ قراءتي الأولى عن اليابان، تغيّر شيء في داخلي. لم أزرها بعد، لكنني أشعر وكأنني عشت فيها لحظةً أو اثنتين... بين انحناءة، وصمت، وشاي يُقدَّم ببطء... وكأن الحياة هناك لا تُقاس بالوقت، بل بالاحترام. وكأنهم قرروا أن يعيشوا الحياة لا كما تُعاش، بل كما تُفهم.

غادرت اليابان، في خيالي، و أنا أشعر أنني تركت خلفي معبدًا لا تُرفع فيه الأصوات، وعدت أُبحر في كتب الصين، البلد الذي لا يكفيه كتاب، ولا تكفيه زيارة، ولا حتى ألف حكاية.

الصين ليست فقط بلدًا، بل قارة قائمة بذاتها، تحمل فوق أرضها إمبراطوريات متراكبة، وتاريخًا يوشك أن يكون خالدًا. ليست مجرد جغرافيا، بل طيف هائل من الثقافات واللغات واللهجات والعادات، كل منها يحمل ذاكرة تمتد آلاف السنين. من سهول الشمال إلى جبال

الجنوب، ومن أحياء بكين القديمة إلى قُرى التِبت، هناك شيء ما يوحّد هذه المساحات اللامتناهية: احترام الزمن.

ما أدهشني في الصين لم يكن سورها العظيم، بل ما هو أعظم منه: العقلية الصينية في بناء العادات. كيف يمكن لعقل جماعي أن يُنظّم الحياة بتلك الدقة، وأن يحتفظ بعاداته ليس كأعباء، بل كوسائل لفهم العالم. في الصين، العادة ليست تفصيلًا هامشيًا، بل هي منطق يومي، فلسفة غير منطوقة، تصوغ العلاقات والسلوك.

في الصين، لكل حركة معنى، ولكل عادة تاريخ، ولكل تصرّف تفسيرٌ اجتماعي أو فلسفي. بدأتُ من عادة بسيطة ظاهريًا: تقديم الهدايا. ظننت أن الهدية مجرّد لفتة، فإذا بي أكتشف أنها مسرحٌ مصغّر للسلوك الجماعي. تعلّمت أن الصيني إذا قدّم لك هدية، لا تتسرّع وتقبلها فورًا، لأن في ذلك قلة لباقة. عليك أن ترفضها أول مرة، وربما مرتين. القبول الفوري يعني الطمع، أما الرفض المهذّب، فهو جزء من طقس اجتماعي يحترم التواضع، ويمنح الآخر فرصة لإظهار الإصرار.

ومع ذلك، فإن الهدية يجب أن تُغلف بعناية، لكن لا تجرؤ أن تُقدّمها في غلاف أبيض... فاللون الأبيض لديهم يرمز للموت، بينما الأحمر هو لون

الفرح والطالع الحسن. حتى شكل العُقدة على الغلاف يحمل رمزية: عقدة ضيقة تعني الأمان، وعقدة فضفاضة قد توحي بعدم الاهتمام. ثم تأتي الأرقام... في الغرب، الأرقام أدوات حساب، أما في الصين، فهي كائنات حيّة. الرقم ٤ يُتجنّب، لأنه يُنطق بطريقة قريبة من "الموت" في لغتهم، في حين أن الرقم ٨ محبوب، لأنه يشبه نطق كلمة "ثراء" أو "ازدهار". حتى في مصاعد البنايات، تجد الطابق الرابع وقد استُبدل بـ"A٣"، لتجنّب النحس.

لم يكن ذلك مجرد ترف تقاليدي، بل طريقة دقيقة في التعبير عن المشاعر دون كلام كثير. في الصين، الكلمات قليلة، لكن الرموز تنطق. الطاولة المستديرة في الطعام تعني أن الجميع متساوون، لا رأس لها ولا ذيل. ترك القليل من الطعام في الطبق يعني أنك شُبعت، وأنك مُمتن للمضيف، أما التهام كل ما على الطبق، فقد يُفسَّر بأن المضيف لم يقدّم ما يكفي.

ثم هناك "الهاشي" – عيدان الطعام الخشبية. لا يجوز أبدًا أن تُغرز في الأرز مباشرة، لأن ذلك يشبه طقوس الجنازات، حيث تُوضع العيدان في طبق أرز أمام الميت. ولا يجوز التلويح بها في الهواء، أو الإشارة بها

لشخص، لأن في ذلك إساءة. كل حركة على المائدة محسوبة، كأنك تؤدي رقصة دقيقة، توازن فيها بين الاحترام والتهذيب.

وحين وقفت عند عاداتهم في الزواج، شعرت أنني أقرأ مسرحية رمزية، تبدأ منذ قرون، وتستمر حتى اليوم. الزفاف التقليدي لا يُقام بلا حضور اللون الأحمر، لا في الزينة، ولا في ثوب العروس، ولا حتى في دعوة الحفل. هو لون الحياة، ورمز الحظ السعيد. العريس يصل أحيانًا على جواد، أو في عربة مزينة بالفوانيس، تتقدّمها الطبول. هناك مراسم دقيقة: تقديم الشاي لكبار السن، والانحناء أمام صور الأجداد، وتبادل العبارات القديمة التي لا تُقال إلا في هذا اليوم.

لكن الأجمل في كل ذلك، أن كثيرًا من هذه العادات لا تزال حيّة، وإن اختلف شكلها قليلًا في المدن الحديثة. ما زالوا يربطون الزواج بالأسرة، لا بالفردين فقط. الزفاف ليس لحظة بين حبيبين، بل التقاء بين تاريخين، وامتدادٌ لسلسلة طويلة من الأسماء التي لا تزال تُذكر.

في لحظة تأمّل، تذكّرت قول كونفوشيوس:

"احترم العادة... فهي صورة متوارثة للحكمة."

ولم يكن ذلك مجرد حكمة عابرة، بل شرحٌ كامل لما يجري أمامي. كل شيء في الصين يبدو بسيطًا، لكنه مبني على طبقات من الفهم العميق والتجربة الجماعية المتراكمة. حتى الصمت هناك ليس حيادًا، بل موقف. وحتى الخطوة الواحدة، لا تُؤخذ بلا هدف.

ثم نظرت إلى الصين من نافذة العصر الحديث. نعم، هناك أبراج شاهقة، وتكنولوجيا متسارعة، وسوق استهلاكية لا تُشبع، لكن ما زالت الروح الصينية تحكم السلوك. لا تزال الجدة تُعلّم حفيدها كيف يُمسك فنجان الشاي، لا من الأعلى، بل من الجوانب، احترامًا للدفء وللضيافة. حتى طريقة الشراء تختلف. لا أحد يصرّخ، ولا يساوم بصوت عالٍ، بل كل شيء يتم بتهذيب لا يخلو من الحسابات الدقيقة.

فهم لا يُنفقون بلا تدبير، ولا يشترون بدافع العاطفة، بل بدافع "الفائدة" – مفردة مركزية في التفكير الصيني، لا تعني الأنانية كما قد نظن، بل تعني الانسجام بين الحاجة والقرار، بين الرغبة والعقل. حتى في تزيين منازلهم، لا يختارون الأشياء اعتباطًا. لكل تمثال صغير معنى، ولكل قطعة ديكور دور. الأسد الحجري على الباب لا يوضع للزينة، بل للحماية. المرآة لا تُعلَّق عبثًا، بل لضبط تدفّق الطاقة في المكان، في

الصين، لم أكن أقرأ عن شعب، بل عن فلسفة عاشت في هيئة بشر. هناك، كل شيء متصل: العائلة، الأرض، الطقس، الطعام، الإشارات، وحتى الأساطير القديمة. الماضي لا يُهمل، بل يُعاد تدويره في الحاضر، ويُصاغ من جديد كأن لا شيء يموت فعليًا، بل يتحوّل.

الصين ليست مجرد مكان، بل طريقة في النظر إلى العالم. وقد تكون المسافة بيننا وبينها ليست بالكيلومترات، بل بطريقة فهمنا للحياة. غادرت الصين، و أنا ما زلت مأخوذًا بذلك الهدوء المنضبط الذي يُغلّف كل شيء، لكنني كنت أعلم أن الرحلة لم تكتمل بعد. كان عليّ أن أعبر جنوبًا، إلى أرضٍ أخرى، أرضٍ كلما قرأت عنها شعرت أن العالم كله قد مرّ من هناك ذات يوم... وترك أثرًا. إلى الهند، التي لا تُشبه إلا نفسها.

ثم حملتني الرحلة جنوبًا، إلى بلادٍ لا يشبه فيها شيء شيئًا، وكل شيء فيها يحمل طيفًا من قديمٍ لا يموت... الهند. هناك، لا توجد عادة وُجدت صدفة، ولا طقسٌ نشأ بلا ظلّ عقيدة أو أسطورة. الهند لا تُفسَّر، بل تُعاش. لا تحتاج أن تمشي في أسواقها المكتظة، أو تصافح حرّها الثقيل لتفهمها، يكفي أن تغمض عينيك وتترك لمخيلتك أن تتسلل عبر ضباب

الصباح في دلهي، أو تتوضأ بنور الغروب تحت ظلال معبد في الجنوب، حيث تصلي الزهور قبل أن تلمسها الأيدي، وتغني التماثيل بالصمت.

من أول ما أسرني في هذا العالم، كانت عادة الأكل باليد. ليست مجرد تفصيلة في السلوك، بل طقس يحمل في داخله فلسفة كاملة: اليد ليست أداة، بل صلة مباشرة بين الجسد والنعمة. لا يُقدَّم الطعام في الهند باعتباره شيئًا يؤكل، بل شيئًا يُحترم. يُطهى بأيدٍ نُقّيت مسبقًا، ويؤكل بأصابع تُستخدم كأنها تُبارك كل لقمة. لكن ما يفوق ذلك دهشة هو مفهوم المشاركة؛ الطعام هناك لا يُؤكل وحدك إن أمكنك أن تشاركه، لأن الشبع ليس جسديًا فقط، بل وجداني.

الزفاف في الهند ليس احتفالًا، بل ملحمة. لا يبدأ بالغناء بل بالاستعداد الروحي، ولا ينتهي في ليلة بل في أيام. العروس لا ترتدي الأبيض، بل تتلفّع بالأحمر أو البرتقالي، كأنها تلبس الشمس. يُرسم الحناء على يديها بنقوش دقيقة تحمل رموزًا للخصوبة والحظ. وفي اللحظة الأهم، يلف العريس شالًا حول يده ويدها، ويدوران سبع دورات حول النار المقدسة، كل خطوة تمثّل عهدًا، ووعدًا، ومبدأً لحياة مشتركة لا تُبنى بالكلمات بل بالرمز.

وحتى حين لا يُبنى الزواج على الحب، كما نعرفه، بل على ما يسمّونه بـ"العلاقة المرتّبة"، يظلّ قائمًا على عمق آخر: حكمة العائلة. هناك، العائلة ليست مجرّد رابطة، بل منظومة متكاملة. الحب قد يأتي لاحقًا، لكن الاحترام موجود من البداية. القرار لا يُؤخذ وحدك، بل مع من تثق بأنهم يرون أبعد منك، لأنهم سبقوك في الطريق.

الولاء للأسرة لا يُدرّس، بل يُعاش. نادرًا ما تجد بيتًا بلا أجيال تعيش تحت سقف واحد. لا يُترك الوالد في دار رعاية، ولا يُنسى الجدّ في ركن بعيد. الهرم الاجتماعي هناك لا يقوم على الصعود الفردي، بل على التماسك. الصغير يعرف مقام الكبير، والكبير لا يتخلّى عن مسؤوليته.

الهند كانت مرآة. رأيت فيها التناقض جميلًا لا مربكًا. من يعبد البقرة يجاور من يكتب برمجيات الذكاء الاصطناعي، من يحمل على جبهته رموز ديانته يقف في قطار مع من يحمل على كتفه حاسوبًا محمولًا. لكن ما يوحّد كل ذلك هو العادة. حتى مع كل الزخم الحديث، بقيت التقاليد راسخة كأن الزمن يمرّ فوقها دون أن يجرؤ على محوها. لا لأنهم عالقون في الماضي، بل لأنهم يعرفون جيدًا ما يجب ألا يُفرَّط فيه.

وتذكّرت هناك مقولة هندية قديمة:

"التقاليد ليست قيودًا... بل جذور تحمينا حين تهزّنا الريح."

فهمت أن العادة، حين تولد من الإيمان والثقافة، تصبح أقوى من الموضة، وأصلب من التغيير، وأطول عمرًا من السياسة.

ومن هناك، دون أن أترك الشرق، وجدتني أنتقل، كمن يعبر نهرًا دون أن يبلّ قدميه، إلى كوريا الجنوبية. لم أحتج إلى مبرر، ولا إلى دعوة، فقد كانت تنتظرني من تلقاء نفسها. شيء فيها يُشبه التوقف أمام مرآة نقيّة؛ لا لتتأمل نفسك، بل لتكتشف ما فاتك أن تراه. بلد يعيش الحداثة بكل طاقتها، لكنه لا يزال يُخبئ في أعماقه أصوات الجدّات، وهمسات الأجداد، وكأن الزمن هناك لا يُمحى، بل يُراكم نفسه بهدوء.

في كوريا، الحياة ليست متسارعة كما يُخيّل إليك، بل منضبطة كأنها رقصة تقليدية تُؤدى على مسرحٍ صامت. كل شيء يُفعل بنظام، لا لأنه قانون، بل لأنه عادة. والعادة هناك ليست حملًا على الروح، بل توازن داخلي يُنقذك من الفوضى. أول ما شدّني كان التحية. ليست مصافحة، ولا عناق، بل انحناءة تشبه انحناءة شجرة أمام ريحٍ لطيفة، تتغيّر زاويتها بحسب المقام والمكان واللحظة. وحتى حين تُقدّم شيئًا،

كتابًا أو كوب ماء، عليك أن تستخدم كلتا يديك... لا واحدة. ليس لأن أحدًا سير اقبك، بل لأن الأدب، ببساطة، يسبق القانون.

تخيلت نفسي ضيفًا في بيت كوري قديم، بأبواب تنزلق بصمت، وأرضيات خشبية تفوح منها رائحة الزمن. العائلة مجتمعة على الأرض، في صمت دافئ، كل فرد يعرف موقعه، وكأن الأرواح هناك تتفاهم دون صوت. الجدّ في المقدمة، يليه الأب، ثم الأحفاد. لا أحد يتجاوز مكانه، ولا يرفع صوته. الطعام يُقدّم على طاولة مستديرة منخفضة، كل طبق صغير له مكانه، نكهته، لونه، واحترامه. حتى استخدام العيدان الخشبية له أصول دقيقة: لا تُغرز في الأرز، لا تُستخدم للإشارة، لا تُترك متقاطعة. هي ليست أدوات طعام فقط، بل أدوات تهذيب.

وفي قلب هذه التفاصيل، يسكن احترامٌ لا يُعلَن لكنه يُمارَس: للكبير، للصغير، للغائب، وحتى للمكان. أن تجلس حيث يُفترض بك أن تجلس، أن تنهي طبقك دون إسراف، أن تُنصت أكثر مما تتكلم... كلها عادات تُلقَّن دون أن تُقال.

ثم مرّ أمامي مشهد مختلف تمامًا عن المألوف: الولادة. حين يولد طفل هناك، لا يُقال إنه يومه الأول. بل يُعدّ قد دخل عامه الأول فعلًا، تقديرًا

لفترة الحمل، واعتر افًا بها كجزء من حياته. وفي يومه المئة، يُقام له احتفال "بايك-إيل"، وتُوضع أمامه أشياء رمزية – مال، كتاب، فرشاة – ليختار، وكأن العائلة تمنحه منذ نعومة أظافره حق تقرير مصيره.

أما الكبار، فليسوا عبئًا يُخفى، بل حضورًا يُقدّس. لا يبدأ الطعام دون إشارتهم، ولا يُقاطَع حديثهم، ولا يُتخطى مقامهم. في كوريا، الشيخوخة ليست نهاية الطريق، بل بدايته الحقيقية... اللحظة التي يبدأ فيها التقدير، لا حين ينتهي.

وفي حفلات الزفاف، بدا لي كل شيء أشبه بمسرحٍ رمزي عتيق. العروس لا تبتسم فقط، بل ترتدي "الهانبوك" بألوان لا تُختار عشوائيًا، وأمامها تُلقى التمرات والكستناء في طقس قديم يرمز للخصوبة والازدهار. الحفل لا صخب فيه، بل وقار... كأن كل حركة فيه تحفظ أثر ألف زفافٍ سبقها.

حتى في الأيام العادية، لا يعلو الصوت كثيرًا. لا في البيوت، ولا في الحافلات، ولا حتى في الفصول الدراسية. التلميذ لا ينظر مباشرة إلى عين معلمه، ليس خوفًا، بل احترامًا. الابتسامة هناك لا تُلقى جز افًا، بل تأتي في وقتها، خفيفة، هادئة، تقول إنك حاضر... بلطف.

الناس هناك يشبهون جداول الماء الصافية؛ لا تُصدر ضجيجًا، لكنها تمضي في طريقها حاملة الحياة. ليست كوريا بلد التقنية فحسب، بل بلد التفاصيل. تلك التفاصيل التي تُبقي الإنسان متصلًا بجذوره، مهما ارتدى من أدوات العصر، أو اعتلى مناصب الحداثة. في كوريا، لا تعيش العادات خارج الإنسان، بل تسكنه، تُشكّله من الداخل، كما تنحت الريح وجه الصخر، ببطء، بثبات، بجمال لا يحتاج إلى ضوءٍ ليلمع.

وبينما كنت أودّع كوريا بخفةٍ في القلب، لم أشعر أنني أغادر آسيا، بل كأنني أستدير نحو وجه آخر من وجوهها الكثيرة... وجه أكثر دفئًا، أكثر هدوءًا، لا يرفع صوته كثيرًا، لكنه يترك فيك أثرًا لا يُنسى.

وصلت إلى تايلاند لا بقطار ولا بطائرة، بل بإحساس غريب أنني على وشك الدخول إلى حلمٍ لا يريد أن يُقال، بل يُعاش. كل شيء في هذه البلاد كان مختلفًا... لا بصراخه، بل بصمته. أول ما استقبلني لم يكن مشهدًا أو رائحة، بل ابتسامة. ابتسامة التايلانديين ليست مجاملة اجتماعية، بل عادة تُشبه التنفّس. حتى في لحظات الضيق، يبتسمون، لا لأنهم لا يشعرون، بل لأنهم لا يرون الغضب يستحق أن يُفسد السلام. وكأن الانفعال عندهم خيانة داخلية تُربك التوازن.

هناك، ترى الاحترام مبثوثًا في كل شيء دون أن يُعلن عن نفسه. لا أحد يلمس رأس أحد، حتى الأطفال، لأن الرأس هو الجزء الأسمى من الجسد. والقدم، بما أنها الأدنى، لا يجوز توجيهها نحو أحد. الأجساد هناك تتحدث بلغتها الخاصة، تخضع لقواعد غير مكتوبة، لكنها مفهومة بالنظرات، وتُدرّس من خلال السلوك المتكرر، الهادئ، المحسوب. حتى الجلوس، له طريقته و اتجاهه.

التحية ليست مجرد كلمات، بل حركة تُشبه الصلاة تُدعى "الواي". راحتي اليدين تُضمان أمام الصدر أو الوجه، وينخفض الرأس قليلًا، في توازن بين التواضع والتقدير. وكلما ارتفعت اليدان، ارتفع معها الاحترام. تُقال معها عبارة "سواي دي"، خفيفة كأنها غيمة، تخرج من القلب، لا من اللسان فقط.

وحين حضرت طقوس الزواج، أحسست أنني أراقب ما يُشبه البخور: خفيف، عميق، لا يُرى تمامًا، لكنه يملأ المكان. العروسان لا يقفان تحت أضواءٍ ولا زينة مُبهرة، بل يجلسان على وسادة منخفضة أمام راهب، يربط بين أيديهما خيطًا أبيض لا يشدّ، بل يوحّد. الموسيقى

ليست صاخبة، بل تراتيل خافتة. الورود ليست مُستوردة، بل زهور موسمية، تعبق بدعاءٍ قديم.

حتى لحظات الموت هناك لا تشبه ما عرفته من قبل. لا صراخ، لا ارتباك. فقط صمت طويل، موكب هادئ، صور معلّقة، وحكايات تُروى. لا يودّعون الراحل كأنه ينتهي، بل كأنه يعود برفق إلى الأرض التي خرج منها.

وفي تفاصيل الحياة اليومية، يستمر هذا الهدوء كتيارٍ لا يُرى. البائع في السوق لا يناديك، بل ينظر إليك. الطفل في المدرسة لا يُعاقَب بالصوت، بل يُرشَد بالتكرار. في البيت، يُقدَّم الطعام للجميع قبل أن يُبدأ الأكل. تُخلع الأحذية أمام الباب، لا كعرف، بل كاحترام لمساحة الداخل.

تايلاند لا تُشبه اليابان في انضباطها، ولا كوريا في رموزها، لكنها تملك نغمة خاصة بها، نغمة لا تعلو، لكنها لا تُنسى. تُشبه رائحة بخور ناعم، لا تعرف من أين أتى، لكنه يعلّق في القلب. هي بلدٌ اختار أن يمشي بخطى أبطأ، وأعمق، وأكثر قربًا من الإنسان. هناك، كل شيء يقول لك إن الهدوء ليس ضعفًا، بل حكمة. وإن العادات حين تُمارَس بمحبة، تُصبح أصدق من ألف قانون.

خرجت منها وفي داخلي يقينٌ جديد: أن أجمل ما في هذه القارة ليس الجبال، ولا المعابد، ولا الأسواق... بل الإنسان حين يتواضع، ويعيش، ويحترم الحياة كما لو أنها معبد.

ومع خروجي من تايلاند، لم أكن أحمل في حقيبتي تذكارات ولا صورًا، بل شيئًا أعمق... شعورٌ بأنني لم أكن أزور دولًا، بل أزور الإنسان كما كان يمكن أن يكون، لولم ينفصل عن جذوره. في اليابان، فهمت أن الصمت أبلغ من الكلام. في الصين، رأيت أن النظام يمكن أن يولد من الحكمة، لا من القسوة. في الهند، شعرت أن الروح لا تحتاج إلى دليل كي تجد طريقها. وفي كوريا، أدركت أن الاحترام لا يُطلب... بل يُمنح. أما في تايلاند، فتعلّمت أن الهدوء ليس الفراغ، بل الامتلاء بلطفٍ لا يُرى.

آسيا لم تكن قارة في نظري... بل حالة. حالة من الإصغاء العميق للحياة، كما لو أن شعوبها قررت منذ قرون أن تعيش لا بالسرعة، بل بالمعنى. تركت خلفي معابد، وأصوات طبول، وروائح بخور، وتراتيل تتردد في رأسي، لكنني كنت أعلم أن الفصل القادم من الرحلة لن يكون مقارنة... بل اكتشافًا جديدًا.

آسيا أغلقت بابها خلفي برفق، كما تفعل الأم حين تُطفئ الضوء وتتركك تنام على قصة لم تنتهِ بعد.

والآن... هناك أرض جديدة تنتظرني، لها طقس مختلف، وإيقاع آخر، وربما أسئلة جديدة تمامًا.

الفصل الثاني

أوروبا – بين الشرق والغرب... حين تصنع الجغرافيا مزاج الإنسان

حين غادرت آسيا، كنت أحمل في ذهني صورة للعادات كأنها خيوط هادئة تنسج التفاصيل بصمت: انحناءة خفيفة، طقوس شاي، صمتٌ له معنى. لكن في أوروبا، كل شيء بدا مختلفًا. هنا، لا تُقال العادة بالهمس... بل تُقال بصوت واضح، بنبرة تُشبه النقاش، أو الموسيقى، أو حتى الاعتراض.

أوروبا لا تخفي مزاجها، بل تضعه أمامك. لا تقدّم نفسها دفعة واحدة، بل على مراحل. بين كل بلد وآخر، بل أحيانًا بين مدينة وأخرى، تتبدّل اللغة واللهجة والابتسامة ومعها تتبدّل العادات — من ترتيب الطاولة إلى طريقة السلام، من توقيت الغداء إلى شكل الاعتذار.

في هذه القارة، الجغرافيا لا ترسم الخرائط فقط... بل تصنع الطباع. الجبال تصنع الانضباط، والسواحل تصنع الألفة، والأنهار تصنع

الحنين. ومن هذا المزيج ولدت ثقافات لا تكرر نفسها، لكنها تشترك في أمر واحد: أنها تعيش العادة كقيمة اجتماعية، لا كإرث جامد.

في أوروبا، ستجد العائلة، والحب، والطعام، والاحترام... لكنك ستجدها بطريقة مختلفة في كل مكان. ولهذا، كانت الرحلة داخل هذه القارة كأنها كتابٌ بلغاتٍ متعددة، كل فصل فيه يحكي الإنسان بلغته الخاصة.

ومن هنا تبدأ الحكاية...

وكان أول فصولها من هناك... من حيث تُختصر الحياة في طاولة خشبية، وقبلة على جبين الجدة، وضحكة تأتي من نافذة مطبخ: إيطاليا ليست مجرد دولة بل إنها شعور. بلد لا يحب أن يشرح نفسه كثيرًا، بل يفضّل أن يعيشه الناس معه كما هو، بنكهته، ببهجته، بحنانه المفاجئ، وصوته الذي لا يخجل من الظهور.

في إيطاليا، العادة ليست قاعدة تُتّبع بصرامة، بل أسلوب حياة. الناس لا يفعلون الأمور لأنهم أُمروا بها، بل لأنهم يرون فيها استمرارًا لما يليق بالإنسان. العائلة هي النقطة الأولى التي يبدأ منها كل شيء — لا مجرد علاقة قرابة، بل مؤسسة عاطفية كاملة. الجدّة ليست ضيفة على

البيت، بل عموده. والطفل لا يُربّى بالكلمات، بل بالنظرات، والمحاكاة، ودفء الحضور.

الغداء هو الركيزة اليومية المقدّسة. ليس مجرد وجبة، بل حوار مفتوح، وذاكرة جماعية. في منتصف النهار، تهدأ الشوارع، تُغلق المحلات، وتبدأ الحياة الحقيقية على الطاولة. تبدأ الوجبة بقصة، لا بطبق. وصفة تعود للجدّة، أو لحكاية من قرية بعيدة. لا أحد يأكل على عجل، ولا أحد يخرج قبل أن تضحك الجدة مرة، ويغضب الأب قليلاً، ويصمت الجميع احترامًا لتلك اللحظة التي يسمّونها: الحياة الجيدة.

في إيطاليا، الأسواق ليست مجرد أماكن بيع... إنها مسرحيات صغيرة تُؤدى كل صباح. البائع يعرفك بالاسم، ويذكّرك بأن الكوسا أفضل اليوم من الأمس. يتحدث عن جبن البارميزان كأنها قطعة من تراث عائلته. الأصوات ترتفع، الأيدي تتحرك، ولكن لا أحد يغضب. المساومة هناك ليست إهانة، بل نوع من الرقص.

والزفاف... لا يوصف. هو أكثر من احتفال، هو عرض حيّ للفرح الجماعي. لا أحد يسأل إن كنت مدعوًا. إن كنت قريبًا، فأنت حاضر. وإن كنت غريبًا وابتسمت، صرت جزءًا من العائلة ليومٍ كامل.

الموسيقى تمشي في الشوارع، الناس يرقصون بأحذيتهم أو دونها، الأطفال يركضون بين الطاولات، والطعام لا ينتهي. حتى الزينة تُحاكي الطبيعة — زهور برّية، خيوط قماش من بيت الجدّة، ولمسة من الذوق المتوارث.

أما في لحظات الحزن، فإيطاليا لا تتظاهر بالقوة. تبكي، بصوتٍ واضح، أمام الجميع. لكنها تبكي بجانب من تُحب. الجنازة ليست مناسبة للغياب، بل للحضور المضاعف. تُذكر قصص الراحل، تُعاد كلماته، وتُقدَّم الأطباق كما كان يحبها... وكأن الطعام يعزّي أيضًا.

الحب هناك لا يُخفى. لا أحد يخجل من أن يقول ما يشعر به. الوردة تُقدّم في العلن. الغزل لا يُهمس، بل يُقال علنًا وكأنه جزء من اللياقة اليومية. يكتبون على الجدران أسماء من أحبوا، يرسمون قلوبًا في الزوايا، ويُعلقون رسائلهم على الجسور، لأن العاطفة في إيطاليا لا تحب أن تعيش في الظل.

حتى الملبس، ليس استعراضًا، بل احترام. الرجل الذي يبلغ السبعين ما زال يختار قميصه بعناية. المرأة تنسق بين الحقيبة والأقراط. لأن الأناقة ليست ترفًا، بل طريقة لقول: "أنا هنا، وأنا أقدّر نفسي".

في التعليم، لا يبدأ الطفل بتلقّي المعلومات، بل بتلقّي الانتباه. المعلم لا يصرخ، بل ينظر في العين. المدرسة لا تفصل بين اللعب والدراسة، بل تمزج بينهما لتعلّم الطفل كيف يحبّ ما يتعلّمه. لا أحد يُجبر على الصمت، بل يُعلّم كيف يتحدث في الوقت المناسب.

حتى الوقت هناك له فلسفة مختلفة. العطلات تُخطّط بدقة، ويُدافع عنها كما يُدافع عن الحق. الغداء لا يُلغى من أجل العمل، والاجتماعات لا تُعقد في ساعة القهوة. هناك، لا يُقاس النجاح بعدد الساعات، بل بقدرتك على أن تحيا جيدًا.

إيطاليا لا تُعلّمك العادة كقاعدة. بل تُعرّفك عليها كطريقة حب. حب للناس، للحياة، للطعام، للنقاش، للضوء، وحتى للمرآة. هي بلد حين تزوره، لا تحتاج لأن تسأل عن العادات... يكفي أن تر اقب، أن تجلس على الرصيف، وتترك للمدينة أن تعلّمك بطريقتها.

من دفء إيطاليا وصخبها العاطفي، وجدت نفسي أتقدّم نحو وجهٍ آخر من أوروبا... وجه لا يبالغ في الحفاوة، ولا يفتح لك قلبه منذ اللحظة الأولى، لكنه حين يفعل، يجعلك تدرك أن الهدوء ليس دائمًا برودًا، وأن الذوق ليس مجرد ترف. هكذا دخلت فرنسا.

فرنسا لا تقول لك من هي... عليك أن تلاحظ. التفاصيل هي التي تتكلم. الطريقة التي يُقدَّم بها القهوة، ترتيب الأزهار على الطاولة، لون الستائر في المقاهي القديمة، وحتى صوت الخطوات على الأرصفة. كل شيء فيها محسوب، لا ليتظاهر، بل لأن التناسق عندهم جزء من الأخلاق، لا من الزينة.

الشعب الفرنسي لا يبالغ في العاطفة الظاهرة. نادرًا ما ترى التصفيق العالي أو الضحك المفرط. لكن حين يحبّون شيئًا، فإنهم يحمونه، يكتبون عنه، يحتجّون من أجله، وينزلون إلى الشارع إن شعروا أن ذوقهم في خطر. في فرنسا، حتى الاعتراض فعلٌ جمالي. لافتة الاحتجاج تُكتب بخط جميل، والهتاف يُقال بصوت موزون.

العائلة هنا ليست كما في إيطاليا — مركزًا دائمًا يدور الجميع حوله — بل هي رابطة هادئة. يتشاركون الحياة، لكن باحترامٍ للمسافة. الجدّة لها مكانتها، لكنها لا تتدخّل. الأب لا يرفع صوته، والأم لا تفرض، والطفل يُربَّى على أن يكون مستقلاً، أن يعبّر عن نفسه، لا أن يكرّر ما يُقال له.

في فرنسا، الطاولة أيضًا مقدّسة، لكن بطريقة مختلفة. ليست مزدحمة بالضحك والقصص، بل موزونة، مرتبة، فيها هدوء. المائدة هناك تُشبه اللغة الفرنسية نفسها: أنيقة، لا تتكلّم كثيرًا، لكنها تقول الكثير. تبدأ الوجبة بمدخل بسيط، ثم الطبق الرئيسي، ثم الجبنة، ثم التحلية — ليس لأن المعدة تحتاج ذلك، بل لأن النظام هو شكل من أشكال الاحترام.

الخبّاز في الحي ليس مجرد بائع، بل مؤتمن على تقليد عمره قرون. والرغيف ليس سلعة... بل رمز. رائحة الخبز صباحًا تُشكّل جزءًا من هوية المكان. يُنتَظر بصبر، لا أحد يزاحم، ولا أحد يطلب بإلحاح. لأن الطابور عند الفرن لا يُخترق. ليس خوفًا من القانون، بل احترامًا للوقت... ولفكرة أن لكل شيء لحظته.

وفي الزفاف، لا يعلو الصوت كثيرًا. لا توجد زينة مبالغ بها، ولا أغانٍ تصرخ. الفستان بسيط، والديكور أنيق، والموسيقى تأتي من عازف كمان يقف جانبًا. يتبادل العروسان النظرات أكثر من الكلمات. وحتى القُبلة، لا تُقدَّم كعرض، بل كإيماءة صغيرة تقول كل شيء دون أن تقول.

أما الحزن، فله نكهة أخرى. لا بكاء علني، ولا نحيب. بل رسائل تُكتب، وصور تُعلّق، وقصائد تُقرأ في المراسم. الحداد هناك لا يصخب، بل ينساب كحبر خفيف على ورقة بيضاء.

في الشارع، لا أحد يصرخ. لا في البيع، ولا في النقاش. حتى الجدل السياسي يُقال بنغمة رتيبة، لكن كلماتُه حادّة. الفرنسي لا يحبّ الصوت العالي، لكنه لا يتنازل عن رأيه. يمرّر اعتراضه بابتسامة، أو بعبارة ذكية، أو بنظرة عميقة تسبقها تنهيدة.

وفي المدارس، لا يُعامل الطفل كناشئ يجب ملؤه بالمعلومات، بل كشخص يُنتظَر منه رأي. الأسئلة مسموحة، والتصحيح يُقال بأدب، والمعلم لا يفرض سلطته بالصوت، بل بالفكر. لأن التعليم في فرنسا لا يهدف فقط إلى التلقين، بل إلى تشكيل شخصية تفهم وتناقش وتختار.

الملبس؟ لا يتعلق بالموضة السريعة. بل بذوق طويل النفس. المرأة الفرنسية لا تلبس لتُلفت، بل لتُرضي عينها أولًا. والرجل لا يتفاخر بثيابه، بل يختارها كأنه يختار جملة في رسالة مهمة.

الفرنسي لا يحبّ الإسراف، لكنه يحبّ الجمال. الجمال عنده ليس في الكثرة، بل في التنسيق. ليس في الثمن، بل في التوقيت. أن تختار الوقت

المناسب للحديث، للابتسامة، للهدية، هذا هو الذوق. أن تعرف متى تقول "لا"، ومتى تصمت، هذا هو الذكاء الاجتماعي.

فرنسا لا تحب أن تُبهرك. هي تفضّل أن تُترك وحيدة لمن يعرف كيف يقدّرها. أن تجلس معها على طاولة صغيرة، تحت ضوء أصفر قديم، وتشرب قهوتك بصمت، بينما تمرّ الحياة حولك بلحنها المتوازن.

وحين تفهم هذا... تدرك أن العادات ليست فقط ما نفعله، بل كيف نفعله. وأن فرنسا، في صمتها المدروس، تقول أكثر مما يبدو.

من فرنسا، حيث التفاصيل تنبض بالرقة، ومن إيطاليا، حيث العاطفة تسير على قدمين، تقدّمت شمالًا، نحو بلد لا يترك الأمور للمصادفة. إلى حيث لا يُعلَن الانبهار، بل يُصنع بصمت: ألمانيا.

ليست بلداً يغازلك من الوهلة الأولى. لا تُقدّم الزينة، ولا تستعرض الألوان. لكنها بلد حين تستقر فيه قليلًا، تبدأ في فهم حكمة العادة التي لا تُقال، بل تُمارَس بدقة وثبات. في ألمانيا، كل شيء له ترتيب، وكل تصرف له سبب، وكل عادة لها خلفية أخلاقية قبل أن تكون اجتماعية.

أول ما يلفت انتباهك هو العلاقة مع الوقت. الوقت هنا ليس ترفًا، بل قيمة عليا. أن تصل في الموعد ليس مجرّد التزام، بل نوع من الاحترام العميق لشخص الآخر. أن تنجز ما وعدت به في توقيته، لا يعني أنك منظّم فقط، بل أنك إنسان جدير بالثقة. حتى المواعيد الصغيرة — كتناول القهوة أو زيارة صديق — تُعامَل بجدّية. لا مفاجآت، لا تأجيلات متكرّرة، ولا "سأتأخر قليلًا". لأن الدقيقة ليست قابلة للتفاوض.

العائلة في ألمانيا تُربّى على الاستقلال. الطفل لا يُدلّل كثيرًا، لكنه لا يُهمَل. يُربّى على أن يُشارك في اتخاذ القرار منذ سن مبكر. يُطلب منه أن يرتب فراشه، أن ينظّف صحونه، أن يتحمّل مسؤولية أغراضه. التربية ليست قائمة على الأوامر، بل على التشارك والوضوح.

في البيت الألماني، كل شيء منسّق. ليس فاخرًا بالضرورة، لكنه عملي ونظيف، والأدوات مرتبة، ومكان كل شيء معروف. حتى الأبسط من التفاصيل — من درج الجوارب إلى ترتيب كتب المطبخ — يدلّ على تقدير عميق للنظام. ليس النظام كسلطة، بل كنَفَسٍ داخلي، يحفظ التوازن ويقلّل الفوضى الذهنية.

الطعام في ألمانيا ليس احتفالًا صاخبًا، لكنه لحظة احترام. الإفطار مثلًا، يُحضّر بترتيب: الخبز، الزبدة، الجبن، الشاي... وكل شيء موضوع في مكانه الصحيح. لا أحد يبدأ قبل الآخر. تُقال "جوتن أبّيتيت" (شهية طيبة) قبل الأكل، لا كمجاملة، بل كجزء لا يُفصَل عن الفعل نفسه. وبعد الطعام، لا يُترك المطبخ لفوضاه، بل يُنظّف فورًا، بصمت، وبدون طلب.

في السوق، لا مساومة. السعر هو السعر. لا تلميح، ولا تودد، ولا "خدمني شوي". لا لأنهم لا يعرفون المرونة، بل لأن الوضوح أرحم. البائع لا يروّج، بل يُجيب بدقّة. لا يمدح المنتج أكثر مما يستحق، ولا يزخرف الكلام. المعلومة هناك هي الخدمة.

الشارع الألماني لا يحتمل الفوضى. خطوط المشاة تُحترم بشكل شبه مقدّس. لا أحد يقطع الطريق قبل أن تتحوّل الإشارة إلى الأخضر، حتى إن لم يكن هناك سيارات. الوقوف في الصف ثقافة مستقرة، لا أحد يتجاوز، ولا أحد يتذمّر من الانتظار. والقطارات، متى تأخرت لدقيقتين فقط، تعتذر، ويُعلَن السبب.

أما في المدرسة، فالعادات التربوية مختلفة تمامًا. لا يُقال للطفل "احفظ هذا" فحسب، بل يُقال له: "ما رأيك فيه؟". النقد يُشجَّع، الأسئلة مفتوحة، والمعلم يُعامل الطلاب كأشخاص راشدين. لا يُصنع منهم متلقّين، بل باحثين صغار. يُتوقَّع منهم أن يفكّروا، أن يناقشوا، أن يحترموا النظام لا لأنهم خائفون، بل لأنهم مقتنعون.

وفي العمل، تبدأ القيم بالظهور أكثر وضوحًا. لا مجال للّف والدوران. الاجتماعات محددة، تبدأ في وقتها وتنتهي في وقتها. لا مجاملات مفرطة، ولا مقاطعات. الإنجاز هو المعيار، لا القرب من المدير. والأداء يُقيَّم بدقّة، لكن بلغة هادئة ومحترمة. لا أحد يُحرج أحدًا علنًا، ولا أحد يُكافأ على "الاجتهاد الظاهري". النتيجة هي ما يُحسب.

العطلة أيضًا لها حرمتها. لا تُخترق برسائل عمل، ولا يُتوقَّع منك أن "تكون متاحًا دائمًا". حين يقول الموظف "أنا في إجازة"، فهذا يعني أنه حقًا غادر العمل بجسده وعقله، لأن التوازن بين الحياة والمهنة ليس شعارًا... بل قانون نفسي.

الزفاف في ألمانيا بسيط. لا ألوان مبالغ بها، لا موسيقى صاخبة، لا زينة تثقل المكان. فستان أبيض هادئ، حديقة، طاولات خشبية، ورود

موسمية، وأصدقاء مقرّبون. حتى الكلمات في الكلمة الترحيبية تُختار بدقة، لأن المعنى هناك يعلو على الإبهار.

أما الموت، فله صمته الخاص. الجنازة لا تصرخ، لا تنوح، لكنها مليئة بالاحترام. يُرتَّب كل شيء بدقة: الورد، النعش، الكلمات، التوقيت، المكان. الحزن لا يُستعرض، بل يُعاش كمسؤولية شخصية.

وفي كل ذلك، الملبس الألماني يعبّر عن فلسفة واضحة: البساطة تعني الذكاء. لا ألوان فاقعة، لا تفاصيل كثيرة، لكن كل شيء أنيق، نظيف، عملي. لا أحد يتجمّل ليُبهر، بل ليرتاح... وليراعي مشاعر الآخرين أيضًا.

ألمانيا لا تستعرض. لكنها تُعلّمك — بصمتها — أن العادة لا تكون جميلة فقط حين تكون رومانسية أو رمزية، بل أيضًا حين تكون فعّالة، دقيقة، وعادلة.

غادرت ألمانيا وما زال في أذني صدى الجرس المدرسي، وفي رأسي صورة القطارات التي تصل بدقة لا تُخطئ، وفي قلبي إعجاب بعادات صُممت كما لو أنها بُنيت على مخطط هندسي محكم. لكنني كنت أحتاج إلى شيء آخر... إلى فوضى دافئة. إلى بلد لا يعيش اليوم في مربعات، بل في دوائرٍ من الضحك والغناء.

وهكذا دخلت إسبانيا، البلد الذي يُشبه أغنية فلامنكو تُغنّى بشغفٍ أكثر منه إتقانًا. منذ اللحظة الأولى، شعرت أنني في حضرة شعب لا يُدير حياته بالساعة، بل بالإحساس. كل شيء هنا يتحرك بإيقاع مختلف، ليس بطيئًا ولا سريعًا، بل حرًّا.

في إسبانيا، الزمن ليس إلهًا يُعبد، بل ضيفًا يُجالسونه ويضحكون معه ويطلبون منه أن يتأنى قليلًا. الدقائق لا تُعدّ، والمواعيد تُحدّد على مهل، لكن اللقاء نفسه، حين يحدث، يكون مليئًا بالحياة. لا أحد يأتي في موعده تمامًا، لكن لا أحد يغادر دون أن يترك أثرًا طيبًا.

العائلة هي بيت الفكرة، ومعنى الاستمرارية. الأجيال لا تفترق، بل تتشابك. يعيش الجد والابن والحفيد في دوائر متداخلة من الحياة، يربطهم الغداء اليومي، وطقوس يوم الأحد، وسهرات الصيف الطويلة. لا تربية صارمة، ولا تهذيب مفرط، بل مزيج من العفوية والاحترام الفطري. الطفل يُعامَل ككائن اجتماعي منذ ولادته، يُشارك في النقاش، يُسمع له، ويُعطى حق الرد.

في أحد أحياء إشبيلية القديمة، تخيلت نفسي أجلس على شرفة حجرية، أراقب نساءً ينشرن الغسيل على الشُرفات، ويمضين وقتًا في

الدردشة أكثر مما يحتجن لنشر القمصان. الحياة هناك ليست إنجازًا، بل مشاركة. حتى المهمات اليومية تتحول إلى طقس اجتماعي.

وفي الأسواق، لا أحد يشتري ويغادر. السوق ليس مكانًا للشراء فقط، بل للتعارف، للمزاح، لتبادل النكات. ترى البائع يُنادي الزبونة باسمها الأول، يُخبرها أن الطماطم اليوم ألذ لأن المطر هطل في الوقت المناسب. لا مواعيد تسليم صارمة، لا عبوس خلف الطاولات، بل بهجة تُباع مع الخضار والفواكه.

أما المطاعم، فهي صفحات مفتوحة من كتاب العادات الإسبانية. لا قائمة طعام تُملى عليك بسرعة. بل نادل يروي لك الحكاية خلف كل طبق. وربما ينضم إليك في الجلسة إن كان الوقت مناسبًا. الوجبات تُشارك، لا تُملك. من "التاباس" إلى "الباييّا"، الأطباق تُوضع في المنتصف، لأن الأكل هنا طقس اجتماعي لا يليق أن يُؤدى منفردًا.

الساعة الخامسة مساءً ليست وقت نوم، ولا عمل، بل وقت قهوة وصحبة. يجلسون في المقاهي لا ليقتلوا الوقت، بل ليعيدوا ترتيب مزاجهم. القهوة لا تُشرب بسرعة، بل ببطء يكفي لتغيير نوعية اليوم.

وفي الزفاف، لا يُقال للناس "أهلاً وسهلاً"، بل يُفتح لهم باب الرقص والغناء. الفرح لا يُدعى له، بل يُسحب من الشارع أحيانًا. تمر فرقة موسيقية، يتجمّع الناس حولها، وتتحوّل اللحظة إلى احتفال عفوي لا يُنسى. الأعراس ليست مناسبة مغلقة، بل مهرجان صغير يجمع الأحبة والجيران والمارّين بالصدفة.

حتى الأحزان لها طريقتها المختلفة. يُودَّع الراحل بكلماتٍ حقيقية، لا بكلام رسمي. تُقال ذكرياته على الملأ، تُروى مو اقفه، ويُضحك الناس من النكات التي كان يقولها. وكأن الموت ليس انقطاعًا، بل فصلٌ جديدٌ من الحكاية.

في التعليم، لا تُفرض السلطة. الطفل ليس مشروع طاعة، بل كائن له رأي. المدرسة بيئة نقاش، والمعلم يُعامل الطلاب كأصدقاء. لا يُحاسب الطفل على الخطأ وكأنه جريمة، بل يُعلَّم أن يتجاوزه. التعلم ليس حشوًا، بل فهم، والتلقين ليس مقبولًا، بل مرفوض ضمنًا.

حتى اللباس في إسبانيا له فلسفته الخاصة. الألوان تُرتدى لأنها تعبّر، لا لأنها "تليق". المرأة لا تخجل من الأحمر، ولا من الأقمشة المزخرفة،

لأنها تلبس لنفسها، لا لعيون الآخرين. والرجل يعتني بمظهره، لا كمظهر رجولة، بل كمظهر احترام للذوق وللمناسبة.

المقاهي لا تُغلق باكرًا، والشوارع تبقى حيّة حتى وقت متأخر، لأن الليل هنا ليس وقتًا للهدوء، بل للتواصل. وفي الصيف، تصبح الساحات مسارح مفتوحة. لا تُغنّى الأوبرا فقط داخل القاعات، بل تُسمع أيضًا من النوافذ. والطفل لا يُطلب منه أن "يخفض صوته"، بل أن "يعرف كيف يستخدمه".

إسبانيا لا تُدرّس العادات في المناهج، لكنها تعيشها كل يوم. العادة هناك ليست شيئًا جامدًا يُتّبع، بل شيء حيّ، يتطور، لكنه لا ينسى جذوره. تمامًا كما يفعل شعب لا يملّ من الحياة، ولا يتقن إلا شيئًا واحدًا... أن يكون حاضرًا بقلبه في كل لحظة.

من إسبانيا، حيث تعيش العادات كرقصة لا تخطئ خطوتها، عبرت البحر صوب بلادٍ لا تُعرَف فقط بأساطيرها، بل بما بقي حيًّا منها في حياة الناس: اليونان.

ما إن تطأ قدمك هذا البلد، حتى تشعر أن الزمن ليس شيئًا واحدًا. هناك زمن حديث يتكلم بالهواتف والقطارات، وزمن قديم يسكن

الجدران، والعيون، وكلمات التحية. في اليونان، لا يمكن فصل الإنسان عن تاريخه، لأن التاريخ لا يُحكى فقط... بل يُؤكل، ويُغنّى، ويُمارَس.

العائلة هنا هي نواة كل شيء. لا تعيش على الهامش، بل في مركز القرار. الجدّة لا تزال تطبخ للجميع، حتى لو لم تعد قادرة على الوقوف طويلًا. الجد يجلس في الزاوية، يراقب، ولا يتدخل إلا حين يُطلب منه، لكنه حين يتكلم يصمت الجميع. الأعياد تُقام في البيت، الولائم تمتدّ، والصغار لا يُقصون عن الحوارات، بل يُزَجّ بهم ليتعلموا المعنى.

في أحد الأحياء القريبة من أثينا، رأيت في خيالي طاولة خشبية كبيرة، فوقها طبق "الموساكا"، وسلطة بزيت الزيتون والجبن الأبيض، وأصوات ترتفع وتضحك وتختلف، لكنها لا تتخاصم. في تلك الطاولة، ترى العادة تمشي بين الأطباق، بين يد الجدّة التي تصرّ أن يملأ الجميع صحونهم مرة ثانية، وبين نبرة الأمّ التي تذكر من أتى ومن تأخر، وبين الطفل الذي يمدّ يده ببراءة قبل أن يسمع كلمة "كالي أوريكسي" — "شهية طيبة".

التحية في اليونان ليست مجاملة، بل احتفال. حين تقول "ياسّو"، فأنت لا تسلّم فقط، بل تعلن أنك ترى الآخر حقًا. العناق موجود،

القبل على الوجنتين، الضرب على الكتف، كل هذه التفاصيل الصغيرة تُقال فيها أشياء لا تُقال بالكلمات.

وفي الزفاف، لا مكان للهدوء. تبدأ المراسم في الكنيسة، بتناغم ديني صارم، وتنتهي في الليل برقصة "سيرتاكي" تُمارَس كما لو أن الجسد لا يتذكر إلا الفرح. الرقص لا يتعلّمه أحد من كتاب، بل من الجلوس قرب الأقدام الراقصة. والحضور لا يجلسون ليشاهدوا... بل ينهضون، يشاركون، يصفّقون، يرمون الورود، ويكسرون الصحون أحيانًا، لا تعبيرًا عن الغضب، بل طردًا للطاقة السلبية. صوت الزغاريد يمتزج مع ضحكة الجدة، ونبض الطبل يُذكّرك أن الفرح في اليونان فعلٌ جماعي لا يُؤجَّل.

حتى في الحزن، هناك كرامة لا تنكسر. الجنازات ليست صاخبة، لكنها ليست باردة. يُبكى الراحل، وتُسرد سيرته، وتُحضَّر له أطباقٌ يحبّها، وتُوزَّع الصدقات. لأنه لا يودَّع كجسدٍ راحل، بل كاسم باقٍ في الذاكرة الجماعية.

وفي السوق، لا تشتري السمك دون أن تسأل عن موعد صيده، ولا الطماطم دون أن تُجري مقارنة سريعة مع السنة الماضية. البائع يُقسم

لك أن هذه الخضرة من أرض والدته، ويخبرك أن العسل الذي أمامك ليس كغيره لأنه من جزيرة بعيدة لم يلمسها التلوّث. وتصدّقه، ليس فقط لأنه مقنع، بل لأنه يتحدث بشغف لا يُشترى.

الطعام نفسه هنا فعل أخلاقي. يُحضَّر بزيت الزيتون الذي يُنتَج غالبًا من بستان العائلة، ويُؤكل مع احترام عميق لمصدره. لا أحد يرمى الطعام، ولا أحد يُسرع فيه. الغداء وقت مقدّس، لا تسبقه الهواتف ولا تقاطعه الشاشات.

المدرسة في اليونان تبدأ بالاحترام. للعلم، للمعلم، وللحوار. لا يُنظر للتلميذ كنسخة صغيرة من الكبار، بل كصوت يجب أن ينضج ويُصقل. التاريخ يُدرّس لا كتواريخ، بل كقصص. أبطال الأساطير لا يُنسَون، بل يُستحضرون، وكأنهم لا يزالون يسيرون في الساحات.

وفي اللباس، ترى انعكاس هذا المزاج المتوسطي: بساطة لا تخلو من أناقة، ألوان الأرض والبحر، والاهتمام ليس بالمظهر فقط، بل بالراحة والذوق الهادئ. المرأة اليونانية تعرف متى تلبس الأسود، ومتى تضع الوردة خلف أذنها، والرجل يعرف أن المشية جزء من الحضور، لا مجرد حركة.

اليونان، باختصار، لا تعيش عاداتها كواجب، بل كتنفس. في الحديث، في الطعام، في الحب، في الحزن... كل شيء هنا يُمارَس كما لو أنه طقس مقدس. والعادة عندهم ليست ماضٍ يجب احترامه، بل حاضر يجب عيشه.

غادرت غرب القارة و أنا لا أحمل حقائب، بل بقايا لهجات، وملامح أناس، وروائح أطباق لم أتذوقها، لكنها علقت في ذاكرتي. هناك، كانت الحياة مرتبة مثل نغمة موسيقية، كل شيء له توقيته، كل طقس له مقامه. لكنني شعرت أن خلف تلك الجبال والحدود، هناك جزء آخر من أوروبا، لا يُقال كثيرًا، ولا يظهر بسهولة.

كنت قد مررت من إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا واليونان، وكل مدينة من هذه المدن تركت فيّ طابعًا لا يمحى. لكن قبل أن أغادر الغرب، كان لا بد أن أتوقف عند الجزيرة التي تُشبه العالم بأكمله وهي مختصرة في شوارعها... بريطانيا.

في لندن، لا أحد يُظهر نفسه بسرعة، لكنها مدينة تُراقبك من اللحظة الأولى. الشوارع هناك تمشي على نغمة ثابتة، فيها احترام دقيق

للمساحة الشخصية، وحدود واضحة لكل شيء، حتى في المزاح. البرد في الجو لا يقسو، لكنه يُعلّمك كيف تقترب بلطف، لا باندفاع.

في البيوت البريطانية، تُقدَّم الشاي كما تُقدَّم العادات: بصمت، وبتوقيت دقيق. هناك وقت للشاي، ووقت للكلام، ووقت للصمت... وكلها تُحترم. الأثاث في الداخل يحتفظ بألوانه القديمة، وكأن كل قطعة فيه تحفظ ذكرى. لا شيء يُرمى بسهولة، ولا يُقال بسهولة.

وفي العلاقات، يندر أن تسمع جملة صريحة. المشاعر لا تُقال، بل تُلمح. الحب يُعبَّر عنه بصنع كوب شاي في صباح بارد، أو بعبارة خفيفة تُقال في الممر. حتى في الفرح، لا يكون الفرح صاخبًا، بل يُقال بنبرة منخفضة وكلمة بسيطة: "جميل، أليس كذلك؟"

وفي المناسبات، لا تُقاس القيمة بحجم الحفل، بل بالدعوة المكتوبة بعناية، بالبطاقة المصممة برقيّ، بالكلمة التي تُقال في لحظتها تمامًا. وفي الجنازات، يُلاحظ الصمت أكثر من الحزن، كأن الحزن عندهم ليس عرضًا يُقدَّم، بل شعور يُحمَل بصبر.

في السوق، لا يُنادى الزبون، بل يُنتظر أن يسأل. لا تُقدَّم السلعة بكثرة شرح، بل يُعتمد على الوصف المختصر. لا مساومة، ولا إلحاح. البيع يتم كأنه اتفاق غير معلن على الاحترام.

أما في المدارس، فالتعليم لا يُلقَّن، بل يُدار كحوار. الطفل يتعلّم أن له رأيًا، لكن أيضًا عليه أن ينتظر دوره في الكلام. والاصطفاف أمام الحافلة ليس أمرًا تنظيميًا فقط، بل تمرين يومي على فكرة: أن حقك لا يُنتزع، بل يأتيك حين تنتظر.

وفي حفلات الزفاف، لا يُغنّى بصوت عالٍ، بل تُعزف موسيقى خفيفة، ويُرقص بلمسة راقية، والوجبات تُقدَّم بلا إسراف، لكنها لا تنقص شيئًا. التفاصيل الصغيرة تصنع الفارق، وكل شيء مدروس بعناية: من الوردة التي تزيّن الطاولة، إلى لون ربطة عنق العريس.

بريطانيا ليست بلاد المشاعر الطافحة، لكنها بلاد الاتزان العاطفي. ليست بلاد الاندفاع، بل بلاد المساحة المحسوبة. وفي هذا التوازن الغريب، وجدت دفئًا لم أكن أتوقعه... دفء الهدوء، وراحة التقاليد التي لا ترفع صوتها، لكنها لا تغيب.

خرجت من بريطانيا و أنا أعرف أن العادات هناك لا تفرض نفسها، لكنها تشبه الماء... تحيط بك دون أن تراك، وتغيّرك دون أن تشرح.

خرجت من أوروبا الغربية وفي داخلي مزيج من أصوات ولهجات ورو ائح لا تشبه بعضها، لكنها اجتمعت في ذاكرة واحدة. عرفت هناك كيف تتحول العادة إلى أسلوب حياة، وكيف تمشي التقاليد إلى جانب الحداثة دون صراع. كل مدينة كانت مثل شخص يروي حكايته بطريقته: إيطاليا بعاطفتها، فرنسا برقتها، ألمانيا بنظامها، إسبانيا بفرحها، واليونان بظلّ أساطيرها الذي لا يفارقها.

لكن شيئًا في الشرق كان يناديني.

لم تكن وجهتي مجرد مدن جديدة، بل عالم آخر بطبعه ولهجته وسرعته. أوروبا الشرقية لم تكن مجرد امتداد للقارة، بل وجهها الآخر. وجه أكثر صمتًا، أكثر تحفظًا، لكنه لا يقل دفئًا حين تقترب. هناك لا تُقال العادات بصوت مرتفع، لكنها تُمارس بإصرار، كأنها جزء من طريقة تنفّس الناس، لا من تعليماتهم.

هكذا واصلت الرحلة، لا بحثًا عن الفرق فقط، بل عن العمق. دخلت أوروبا الشرقية و أنا لا أطلب الترحيب، بل فقط أن أُصغي... لأن هذا

الجزء من العالم لا يفتح قلبه بالكلمات، بل بالعادات و أول ما استوقفني هناك كان رومانيا، بلد له ملامح لا تُشبه أحدًا، تشعر فيه أنك تدخل ذاكرة قديمة لم تُمسّ، و أنك تمشي في قصة لم تُغلق صفحاتها بعد. لا شيء هناك يُقال بسرعة، ولا تُكشف العادات دفعة واحدة، بل تظهر تدريجيًا، كما تظهر ملامح القرية حين تبتعد الضبابات.

منذ لحظة الوصول، بدأت التفاصيل تُحدّثني بصمت: الجدّات على الأرصفة يبعن الزهور المجففة والأعشاب الطبية، الأطفال يركضون بين البيوت الحجرية، والرجال يجلسون على المقاعد الخشبية عند الزوايا، يلوّحون لمن يمر، كأنهم يعرفونه، حتى لولم يروه من قبل. هناك لا تُقال كلمة "أهلًا" مباشرة، بل يُقدَّم لك كأس ماء وقطعة من الخبز مع رشّة ملح، ليس من باب المجاملة، بل كأنهم يقولون لك: جئتنا غريبًا، فكن منّا. يُقال إن من يرفض الخبز والملح، يرفض البركة كلها.

البيوت متقاربة، والنوافذ صغيرة، لكن الأرواح هناك واسعة. في المساء، حين يقترب الغروب، تسمع صوت الدلو يُنزَل في البئر، وتشمّ رائحة الخبز المخبوز على الحطب، وتشاهد النساء يعلّقن الغسيل الذي

لا يُنشر فقط ليجف، بل كأن فيه عرضًا صامتًا لجماليات الحياة اليومية.

وفي الأعراس، لا يبدأ الاحتفال بالموسيقى، بل بالدعوة الجماعية التي يمرّ بها العريس وأصدقاؤه على كل بيت، يُنشدون، ويطلبون مباركة الجيران. العروس لا تصل وحدها، بل تصحبها نساء العائلة في موكب، تحمل فيه الفتاة الأصغر مرآة، والأخرى شمعة، والأخرى سلة ورد. كل تفصيلة ترمز لشيء: النقاء، النور، الخصوبة، الحماية. الرقص لا يكون زوجيًا فقط، بل جماعي، تصطف فيه الأجيال دون فرق، من الطفلة إلى الجدّ، وكل يد تمسك بيد، وكأنهم يربطون العائلة في دائرة واحدة لا تنفصل.

في الجنازات، المشهد مختلف لكنه مهيب بنفس القدر. لا يودَّع الميت بصراخ، بل بصمت ثقيل يحمل إجلالًا حقيقيًا. تُعلّق قطعة قماش سوداء على باب بيته، وتُقدَّم القهوة للمعزّين لا للضيافة، بل لتذكيرهم بأن الحياة مرة، والرحيل ليس غيابًا، بل عبور. وتُقرأ قصيدة قصيرة يُقال إنها تُقال للروح، لا للناس، كأنها مفتاح العبور إلى الجانب الآخر.

حتى الأسواق هناك ليست أماكن للشراء فقط، بل مسرح صغير للعادات. لا أحد يصرخ ليبيع، بل ينتظر أن تتوقف أمامه، أن تلمس قطعة الجبن أو تقرّب أنفك من برطمان العسل، فيبدأ بالحديث كأنك فتحت باب الحكاية. "هذا العسل من خلايا قرب النهر، هذه الجبنة عمرها ثلاثة أشهر، هذا الخبز فيه زعتر من حديقة أمّي." كل سلعة تحمل اسمًا، ورائحة، وذكرى.

رومانيا ليست مكانًا تزوره، بل تجربة تدخلها. لا تحتاج لأن تفهم لغتها كي تشعر بانتمائها؛ يكفي أن تمشي في شوارعها الضيقة، أن تجلس على مقعد خشبي تحت شجرة خوخ، أن تُنصت لصمتها الطويل... وستفهم أن هناك أماكن لا تصرخ لتُبهرك، بل تهمس... فتأسرك. وفي رومانيا، العادة ليست تقليدًا يُكرّر، بل طريقة حياة تُصاغ كما تُصاغ القصيدة: بنبض، ونَفَس، وإيمان بأن التفاصيل الصغيرة هي التي تحفظ الروح.

وما إن غادرتها، حتى أحسست أن روحي قد تهدّلت قليلًا من كثرة التفاصيل... لكن بلغاريا لم تُعطني وقتًا لألتقط أنفاسي. دخلتها كما يدخل المرء بيتًا صامتًا، يشعر فيه بالدفء قبل أن يرى مصدره.

بلد لا يحب أن يعرّف نفسه بصوت مرتفع. لا شيء هناك يتكلّف الظهور. الطبيعة صامتة، لكن العادات تتحدث نيابةً عن كل شيء.

في بلغاريا، تبدأ العلاقة بالعين. نظرة سريعة، ثم ابتسامة خفيفة، ثم صمت لا يُشعرك بالغربة، بل يمنحك فرصة أن تتناغم مع الإيقاع. لا أحد يستعجلك. حتى في التحية، لا يقال الكثير: فقط كلمة مختصرة، وإيماءة بالرأس. لكن خلف هذه البساطة، تختبئ حياة كاملة من الاحترام والرمزية.

أول ما يدهشك هناك، أن الإيماءة بالموافقة والرفض ليست كما تعرفها. أن تهزّ رأسك للأعلى والأسفل، قد يُفهم على أنه "لا"، وأن تُحرّكه يمينًا ويسارًا، قد تعني "نعم". الأمر ليس ارتباكًا، بل عادةٌ قديمة لا تزال صامدة، كأنها تقول لك منذ اللحظة الأولى: لا تفترض، بل تعلّم.

في البيوت، لا أحد يرفع صوته. الكبار يتحدثون ببطء، والصغار يتعلمون الإصغاء قبل التعبير. الأثاث يحتفظ بروحه القديمة: مفارش بيضاء مطرّزة يدويًا، صور الأجداد على الجدران، وأيقونات دينية في الزوايا، تُضاء لها الشموع في الأعياد والمناسبات.

الطعام في بلغاريا جزء من العلاقة، لا من الاحتياجات. على الطاولة، لا يُبدأ الأكل دون أن يُقدَّم أولًا للضيف. حتى في أبسط البيوت، هناك طقس يُشبه التقديس: الخبز يُقطع يدويًا، ويُقدَّم باليد، وليس بالسكين. لأن الخبز هناك ليس مجرد طعام، بل رمز. يوضع في المنتصف، حوله أطباق صغيرة: زبادي، فلفل مشوي، زيتون، وجبنة بيضاء تُشبه جبنة الجدّات.

وفي الأعراس، تُقرَع الطبول وتُعلّق الخيوط الحمراء على صدور الحاضرين، كأنها حماية صامتة من الحسد وسوء الحظ. العروس ترتدي زيًّا تقليديًا مُطرّزًا بألوان زاهية، وتُزيَّن جبينها بوردة صغيرة، بينما تقودها النساء في رقصة دائرية تتّسع شيئًا فشيئًا، حتى تشمل الجميع.

أما في الجنائز، فلا يُنادى على الميت، بل يُرافق إلى مثواه بتراتيل هادئة، تُقرأ فيها آيات من الإنجيل، وتُقدَّم بعدها وجبة بسيطة على روحه، تُسمّى "كوليفا"، تُصنع من القمح المُحلّى، وكأن الرسالة تقول: من الأرض جئنا، وإلى القمح سنعود.

الأطفال يتعلّمون كل ذلك دون أوامر. يرونه يُمارس في البيت، وفي المدرسة، وفي الشارع. حين يقف الطفل عند باب الصف، لا يدخل حتى

يُدعَى. لا يجلس حتى يُقال له "اجلس"، ولا يبدأ الطعام قبل الكبار. وحتى اللعب، فيه حذر، فيه احترام للمكان والناس.

بلغاريا لا تُعلّمك عاداتها بصوت مرتفع، بل تضعها في طريقك... و أنت، دون أن تدري، تبدأ في الالتزام بها. هناك، لا يُفرض عليك شيء، لكنك تخجل أن تكسره. والناس، حتى لو تعبوا، لا يشتكون كثيرًا... بل يقولون: "كل شيء سيمضي"، ثم يقدّمون لك كوب شاي دافئ، و ابتسامة لا تبحث عن تفسير.

ومن بلغاريا، حيث كل شيء يُقال بنظرة، وجدت نفسي أمشي بخفّة نحو أوكرانيا... بلد لا يصطخب، بل يُحدّثك من العمق، وكأن أرواح الأجداد هناك لا تزال تتجوّل بين الحقول والبيوت.

في أوكرانيا، لا تبدأ معرفة الناس من وجوههم، بل من أيديهم. أيدٍ اشتغلت الأرض، وخبزت، وطرّزت، وربّت. أيدٍ لا تتحدث كثيرًا، لكنها تعرف كيف تزرع في التراب، وكيف تمسح دمعة دون أن تُسأل عنها. هناك، تشعر أن الحياة لا تُقال... بل تُعاش كما هي، خامًا، بلا زخارف.

أول ما يستقبلك هو الريف، حتى وإن كنت في المدينة. لأن روح القرية تسبق المباني، وتفرض نغمتها على كل شيء. البيوت فيها ستائر بيضاء

قصيرة، وشُرفات مليئة بالزهور، والخبز يُخبز على نار حطب، ويُقدَّم مع الملح والابتسامة.

التحية هناك ليست كلامًا، بل جسدًا يقف ويبتسم ويُشير لك بالدخول. لا يُقال "تفضل"، بل تُفتح لك الأبواب كأنك كنت متوقَّعًا. في البيوت، تُقدَّم لك "البورش" — شوربة البنجر الحمراء التي لا يغيب طعمها أبدًا، وتُقدَّم مع الخبز الأسود والزبادي. لا يؤكل الطعام بسرعة، بل يُناقش، تُروى قصته، تُحكى طريقة الطهو، ومن أين جاءت المكونات. كل طبق يحمل سيرة ذاتية، وكل نكهة تحمل ذكرى.

في الأعراس، تبدأ الطقوس من الفجر. العروس تُزيَّن في بيتها، لا وحدها، بل وسط نساء العائلة، يُغنين لها ويضعن فوق رأسها إكليل زهور طبيعي، ثم تمشي وسط أهلها إلى الكنيسة أو الساحة، لا كأميرة، بل كأيقونة محلية تمثل الحظ والخصب والفرح. تُربط يدها بيد العريس بشريط مطرّز، لا يُفكّ إلا حين يدخلان بيتهما الجديد، وكأن العقد ليس توقيعًا على ورق، بل خيطًا حيًا بين قلبين.

وفي الجنازات، تُحمل الصور أكثر من الكلمات. تُعلَّق صورة الميت في صدر البيت، وتُضاء شمعة لا تُطفأ حتى تمرّ أربعون يومًا. الجيران يأتون

بصمت، يتركون طعامًا، يقرأون بصوت منخفض، ويخرجون بلا ضجيج. لأن الحزن هناك لا يُستعرض، بل يُحترم.

أما في المواسم، فتُقام "المالانكا" — احتفالية شعبية تُقام في الشتاء، تُرتدى فيها الأقنعة، وتُقرع الطبول، وتُقال فيها النكات والأغاني الشعبية. ليس الهدف منها المرح فقط، بل طرد الحظ السيء، واستدعاء الفرح للسنة الجديدة. الناس يخرجون في طو ابير، يرقصون في البرد، ويضحكون كما لو أن الحياة لا تهزمهم أبدًا.

حتى الأطفال، يتعلمون كل شيء من العادة. يرون الجدّة تُقبّل رغيف الخبز قبل أن تُقطّعه، فيفعلون مثلها. يُعلّمهم الأب أن لا يطلبوا شيئًا قبل أن يُقدَّم لكبار السن، وأن لا يبدؤوا الأكل إلا بعد صلاة قصيرة، لا تُقال بصوت عالٍ، بل تُهمَس كعادة.

أوكرانيا بلد لا تراه بعينيك، بل تعيشه بروحك. تخرج منه ولا تزال تسمع أغنياته تُردَّد على لسان الجدّات، وتشعر أن الريح هناك لا تحمل الغبار... بل الذاكرة.

من أوكرانيا، حيث الذاكرة تُروى في مواسم الزرع والحصاد، شدّتني الخريطة نحو روسيا، ليس لأن الطريق يقودها هناك، بل لأن الذاكرة

تنحني أمامها. في روسيا، لا تدخل فقط بلدًا، بل تدخل سردابًا عميقًا من الطبقات الإنسانية... هناك حيث كل شيء ضخم: المساحة، الطقس، التاريخ، والمشاعر.

روسيا ليست صاخبة كما يبدو في الأخبار، لكنها ليست هادئة أيضًا. إنها بلد يُخفي انفعالاته في الأعماق، ويفصح عنها فقط لمن يقترب بما يكفي. هناك، تشعر أن العادات لا تأتي لتجمّلك أمام الناس، بل لتؤدبك أمام الحياة.

الناس في روسيا لا يبتسمون كثيرًا في الشارع. وقد يُخيَّل إليك أن هذا جفاء، لكنه في الحقيقة احترام. فالابتسامة هناك لا تُوزَّع بلا سبب، بل تُمنَح في لحظاتها الصحيحة. ولذلك، حين ترى ابتسامة روسي، اعلم أن قلبه انفتح لك لحظة، و أنك عبرت إليه، لا فوقه.

التحية تُقال بقبضة يد صلبة، بنظرة صريحة. لا مجاملات طويلة، ولا عبارات ملساء. وإذا دخلت بيتًا روسيًا، لا تنتظر أن يُقال لك "ادخل"، الباب يُفتح لك وكأن صاحب الدار يقول: "أنت تعرف طريقك، فادخل مثل أهل البيت."

وغالبًا ما تجد على المائدة الحساء الأحمر – بورش – ساخنًا ومغذيًا، يُقدّم مع الخبز الأسود السميك، وكأنهم يقولون لك: "الدفء لا يأتي من الأكل فقط... بل من نيتنا."

في الريف الروسي، لا تزال العادات تُمارَس كما لو أن الزمن لا يمرّ. حفلات الحصاد، وصوت الغناء الجماعي، والأفران الحجرية التي تطهى فيها الفطائر المحشوة بالبطاطس أو الملفوف أو اللحم، وكل تفصيل هناك يحكي عن بقاء لا يريد أن يُنسى.

الأجداد يجلسون على المصاطب، لا يتكلمون كثيرًا، لكن حين يُسألون... تبدأ الحكايات، لا تنتهي. يبدأون من الثورة، ويمرّون بالحرب، ولا ينسون طفولتهم في قرى لم تعد على الخريطة. الذاكرة في روسيا ليست فردية... بل قومية، والقصص هناك تُقال وكأنها نشيد، لا حكاية.

وفي الأعراس، العادات راسخة. يُزيَّن بيت العروس بأقمشة مطرزة يدويًا، تُشعل الشموع في الكنيسة الأرثوذكسية، ويُلقى على العريس خَبَز وملح كرمز للتحمّل والصبر. هناك رقصة تُسمى "كوروفتشكا" تؤدَّى في بعض القرى القديمة، تتوسط فيها العروس حلقة بشرية من النساء،

تدور وهي ترتدي التاج المزخرف، وتغني الحاضرات لها أغانٍ شعبية تذكّرها بأنها الآن لم تعُد فردًا... بل جزءًا من تاريخ العائلة.

وحين يحلّ الموت، لا يُصاحَب بالعويل العالي، بل بالصمت. تُغطّى المرايا بقطع قماش بيضاء، تُطفأ الموسيقى، ويُغسل الجسد بماء دافئ مملّح كما جرت العادة. ويوضع كتاب الصلاة تحت الوسادة، وتُشعل شمعة تُترك حتى تنتهي وحدها. كل شيء يتم ببطء، برهبة، وبحسّ أن الروح تُعاد، لا تُفقد.

الروس لا يُظهرون عواطفهم سريعًا. قد تعيش بينهم شهورًا دون أن تُفهم، لكن إذا أصبحت "واحدًا منهم"، ستُدعى إلى النُّزْهَة في الغابات، إلى أكل التوت البري، إلى حفلات الشواء في البرد، حيث تُشرب أكواب الشاي مع مربى الكرز، وتُقال كلمات قليلة، لكنها حقيقية.

ومن قلب موسكو، المدينة التي تقع بوضوح على الجانب الأوروبي من روسيا، تدرك أن هذا البلد ليس فقط أكبر دولة في العالم جغرافيًا، بل إنه يقف فعليًا على عتبة قارّتين. جزء منه أوروبي، وجزء آسيوي، لكن الروح فيه تُشبه جسرًا بين الشرق والغرب. وفي هذا المزيج الفريد، لا تضيع الهوية، بل تتعزّز.

الشوارع العريضة، الساحات الحجرية، والكنائس ذات القباب الذهبية... كلّها تنتمي لجذر أوروبي واضح. لكن في الزوايا، في الأطباق، في التفاصيل، هناك لمسة آسيوية صامتة، كأن روسيا قررت أن تأخذ من كل حضارة أجمل ما فيها... ثم تحفظه بطريقتها الخاصة.

حتى الطقوس، وإن بدأت أوروبية المظهر، تنتهي بشيء لا يشبه إلا الروس. كأنهم يقولون دون أن يتكلموا: لسنا شرقًا ولا غربًا... نحن نحن.

حتى الزمن يُقاس عندهم بشكل مختلف. لا أحد مستعجل، لكن لا أحد كسول. العمل يُنجَز، لكن دون ضجيج. العطلة تُقدّس، لكن دون استهتار. الجلوس مع العائلة مساءً لا يُخطَّط له... بل يُفترض أنه يحدث.

الأطفال يتعلمون احترام الكبار بالقدوة، لا بالأوامر. يرون الجدة تُقبل يد الجدّ في الصباح، ويرون الأب يُطفئ التلفاز عند قراءة الأم، فيفهمون دون أن يُقال لهم.

الكتب لا تزال جزءًا من الحياة اليومية، وكثير من الروس يحتفظون بمكتبة صغيرة في منازلهم، ليس ترفًا، بل تقليدًا. كل بيت فيه كتابٌ يُهدى لجيلٍ جديد.

روسيا تُربّيك لا بالعقاب... بل بالتكرار. تُمرّر إليك القيم بالتعب، وبالثلج، وبالسكوت الطويل الذي يشبه القصيدة أكثر مما يشبه الحوار.

وحين تغادرها، لا تشعر أنك غادرت مكانًا، بل أنك فتحت بابًا كبيرًا في داخلك... وأغلقته بهدوء.

وهكذا كانت روسيا خاتمة الرحلة في أوروبا الشرقية، بلدٌ لا يُغادر ذاكرتك بسهولة، ولا يشبه أحدًا. وعندما نظرت إلى الخريطة من جديد، شعرت أنني لم أمرّ بدول فقط، بل مررت بعقولٍ وقلوبٍ وأساليب حياة كاملة.

كل عادة كانت لغة، كل طقس كان مرآة، وكل شعبٍ كان كتابًا مفتوحًا لمن أراد أن يقرأه حقًا.

أغلقت باب أوروبا على مهل، و أنا أحمل في داخلي صمت الروس، ودفء الرومانيين، وبهجة البلغار، وكأن هذه القارة، رغم كل اختلافاتها، تتفق

في شيء واحد: أن العادات ليست مجرد بقايا ماضٍ... بل بصمة لا تُمحى على وجه الإنسان.

والآن، آن أوان الانتقال إلى إيقاع آخر... إلى قارة تُغنّي بلغة مختلفة، وتصفق بإيقاع أسرع، إلى مكان تُصبح فيه الحياة حفلةً لا تنتهي.

نشدّ الرحال إلى أمريكا اللاتينية.

الفصل الثالث

أمريكا اللاتينية – حين ترقص العادات على إيقاع القلب

كل ما قرأته سابقًا لم يهيّئني كفاية لما شعرت به وأنا أتجه بخيالي إلى أمريكا اللاتينية. هناك، لا تُقاس الحياة بالساعات، بل بالأنغام. لا يُحدّد المزاج بالنشرة الجوية، بل بنغمة الغيتار، ورقصة التانغو، وضحكة الجارة من الشرفة.

إنها القارة التي لا تمشي... بل ترقص.

أمريكا اللاتينية لا تحتاج إلى تعريف، بل إلى نبض. من لحظة الهبوط—ولو كان خياليًا—تشعر أن الهواء نفسه فيه موسيقى، أن الشوارع تبتسم دون سبب، وأن حتى الحزن فيها لا يمرّ إلا برفقة أغنية.

في هذا الجزء من العالم، تختلف كل القواعد التي ظننتها ثابتة. فالمناسبات لا تُخطط... بل تنفجر. الناس لا ينتظرون الدعوة... بل يحضرون. الطعام لا يُقدّم على الطاولة... بل في الحضن. العائلة ليست وحدة اجتماعية... بل حياة بأكملها.

ولعلّ أول ما يُدهشك هنا أن العادة لا تأتي على استحياء، بل تدخل من الباب، وتغنّي بصوت عالٍ، وترقص بين المقاعد، وتوزّع القُبل قبل أن تجلس.

نعم، في أمريكا اللاتينية... العادة ليست شيئًا نمارسه، بل شيئًا يحتوينا.

هنا، سنتنقل بين أزقة بوينس آيرس، وحارات ريو دي جانيرو، وسهول المكسيك، وأسواق كولومبيا، لنفهم كيف يعيش الناس، لا كيف يقولون إنهم يعيشون.

هيا بنا... فالقلب هنا هو الدليل.

أول ما خطر لي حين وصلت بخيالي إلى الأرجنتين، لم يكن رقصة التانغو ولا صوت مارادونا... بل الملامح. الناس هنا يشبهون صفحات كتاب كُتب على مراحل: وجوه أوروبية، طباع لاتينية، وقلوب تشبه الأرض... خصبة، مفتوحة، وتعرف كيف تحتضن الغرباء.

بوينس آيرس، العاصمة، ليست مدينة تُكتشف من أول زيارة. بل تُتذوّق على مراحل. شارع "كامينيتو" ليس مجرد ممشى، بل لوحة حيّة،

تخرج من الجدران وتتكلم معك بالألوان. البيوت هناك مطلية بالأحمر، الأزرق، الأصفر... لا اتباعًا لذوق معماري معين، بل لأن الحياة نفسها لا تحتمل الرمادي. الألوان هناك ليست مجرد طلاء... بل إعلان حيّ أن الروح ما زالت ترقص، رغم كل ما مرّ.

في الأرجنتين، العادة ليست فقط شيئًا يُمارَس... بل شيء يُتعلَّم منذ الطفولة. أول درس يتلقاه الطفل هناك: "لا تتناول المتة وحدك". المتة – هذا المشروب الأخضر الساخن – ليس مجرّد شاي عشبي. بل هو طقس جماعي. كوب واحد، يشرب منه الجميع، بنفس القشة المعدنية، يُمرَّر من يد إلى يد، في دائرة لا يُكسر فيها الترتيب. من يرفض شرب المتة كأنما رفض الدخول في الدائرة. ليس الهدف من المشروب إرواء العطش، بل تقاسم اللحظة. حتى الصمت حول فنجان المتة يحمل نوعًا من الطمأنينة.

حتى صمت الأرجنتينيين له نكهة. هم ليسوا شعبًا كثير الكلام، لكنهم يعرفون متى يتحدثون... ومتى يتركون المسافة تتكلم. في لقاءات الأصدقاء، لا يحتاجون إلى مواضيع جاهزة، بل يتركون الوقت نفسه ينضج، مثل قطعة لحم تُطهى على مهل فوق نار "الأسادو".

ويا لهذا الأسادو...

الشواء في الأرجنتين ليس وجبة، بل عرض كامل. يبدأ بإشعال النار، ثم اختيار القطعة، ثم مرحلة الانتظار الطويل... حيث يتجمع الجميع حول الشواية وكأنهم أمام مسرح. لا أحد يستعجل، لا أحد يُحاسب الطاهي، فثقتهم به تشبه إيمان قديم. واللحم؟ يُقدَّم على مراحل، وبصمت شبه مقدّس. كل قضمة تُحترم، كل طعم يُصغى له، كما لو كان قطعة موسيقى. الطعام هنا يُؤكل باللسان وبالذاكرة معًا. لا وصفات مكتوبة، بل أمهات يعرفن بالحدس متى تُضاف الملح، ومتى يُسكب الزيت.

في الأعراس، لا يوجد وقت محدد للنهاية. ربما لأن الفرح عندهم ليس مؤقتًا، بل قرار. ترتدي العروس فستانًا أبيض تقليديًا، لكنه لا يخلو من لمسة شخصية، وغالبًا ما تحمل في يدها شيئًا من الأم، أو الجدّة، كأن الماضي يبارك الخطوة الجديدة. وفي لحظة الرقص، لا يبدأ التانغو بالموسيقى، بل بنظرة. نظرة طويلة، صامتة، يتفق فيها الجسدان على التقدّم. التانغو ليس رقصة سريعة، ولا عشوائية. هو حركة بطيئة، مشدودة، كأن الجسد فيها يعترف، ويغفر، ويبوح. الرقص هنا ليس زينة... بل لغة تُنطق بالأقدام.

الأرجنتينيون لا يخفون عاطفتهم، لكنهم لا يوزّعونها مجانًا. عليك أن تكسب ثقتهم، وعندها فقط يُفتح لك باب الدفء، وتُعامَل كما لو كنت ابنًا من العائلة. يقدّسون أمّهاتهم، يعتنون بكبار السن، ولا يترددون في ترك العمل من أجل اجتماع عائلي. العائلة، في الأرجنتين، ليست شيء يُذكر في المناسبات... بل شيء يُحكى في كل يوم. المائدة لا تُعدّ فقط للأكل، بل للحديث، للفضفضة، وللضحك الذي يُخفف عن الأيام.

حتى في الحزن، يملكون طريقتهم الخاصة. الجنازات لا تصرخ، ولا تبكي كثيرًا، بل تُروى فيها الحكايات. من مات، لا يُقال إنه "رحل"، بل "غيّر مكانه". يُسترجع صوته، ضحكته، طريقته في الجلوس، فتُعاد الحياة إليه لحظات قبل أن يُوارى التراب.

وفي الفن، كما في الحياة، يحب الأرجنتينيون كل ما يحمل طبقات من العمق. الأفلام، الأغاني، المسرحيات... ليست مجرد ترف، بل ضرورة للروح. هم لا يملّون من التفكير في المعنى، في التفاصيل، في العلاقة بين الجمال والحقيقة.

في الأرجنتين، الحياة تشبه التانغو... بطيئة، مشدودة، فيها شوق، وفيها انضباط، لكنّها دائمًا تنتهي بابتسامة. تركت هذه البلاد – أو بالأحرى،

تركتني – و أنا أشعر أنني لم أكن سائحًا... بل ضيفًا في قلوب الناس. وما إن غادرتها بخيالي، حتى شعرت أنني لم أكن أترك الأرجنتين تمامًا... بل كنت أدخل إلى ذراع أخرى من نفس القارة، ذراع لا تمشي... بل ترقص: البرازيل.

في البرازيل، لا يُعلَن عن الفرح... الفرح يُمارَس. تفتح عينيك على شمس لا تطرق النافذة بل تقتحمها، وعلى أصوات نساء يُنظّفن المداخل وهن يغنين، وعلى أطفال يركضون حفاة فوق الأرض الحارة كأنها ملعب أبدِيّ. الهواء يحمل رائحة البحر، والجبال، والبخور، والسكّر المحترق في أكشاك الشوارع.

هنا، لا تحتاج إلى بطاقة تعريف، بل إلى ابتسامة. لا يهم من أنت، أو من أين جئت، طالما أنك تعرف كيف تقول "أوي!" بلحنٍ دافئ، وتلوّح بيدك كأنك تُصافح الشارع كلّه.

ريو دي جانيرو ليست مدينة تُكتشفها بخريطة... بل تُفهم بنبض القلب. كل حيّ فيها يملك موسيقاه الخاصة، كل زقاق له طبعه، حتى الجدران المتهالكة تتزيّن برسومات تجعلها أكثر حياة من كثيرٍ من المباني الفاخرة.

في حيّ "سانتا تيريزا"، البيوت ترتفع على منحدرات الجبل، لكنها لا تتعالى. تتشبث بالأرض كأنها تقول: "نحن من هنا... وسنبقى هنا، بالحبّ لا بالقوة." هناك تلتقي بالرسامين، والعازفين، وبالأرواح التي اختارت أن تعيش ببطء، كأنها تقاوم التسارع العالمي بالغناء والرسم وأحاديث الشاي.

أما في "لاڤا دور"، كل جدار يغني، وكل درج يحكي قصة. الدرَج الملون الشهير ليس تحفة معمارية فقط، بل ممرّ للناس العاديين... يلتقطون الصور، لكنهم لا ينسون أن يحملوا أكياس الخضار في طريق العودة.

في البرازيل، السامبا ليست موسيقى فقط، بل موقف من الحياة. تُعلّمك أن ترقص حتى وإن كانت الدنيا تمطر، وأن ترفع رأسك وتلوّح بذراعيك ولو كان قلبك مثقلاً. وفي مهرجان "الكارنفال"، لا يُسأل أحد عن اسمه أو دينه أو جنسيته... الكل يرتدي الألوان، الكل يرقص، الكل يتساوى.

لكن البرازيل ليست كرنفالًا دائمًا... هناك أيضًا وجه الحياة اليومية، الذي لا يقل روعة.

الطعام هنا لا يُحضّر فقط... بل يُحتفى به. في كل حيّ، تجد نساء يطبخن في الأواني الضخمة، وتفوح رائحة الثوم والبصل، وكأن البيوت تتحدث. "الفيجوادا" – تلك الوجبة السوداء المصنوعة من الفاصوليا واللحم – تُطهى لساعات، وتؤكل بهدوء، لا لأنها ثقيلة... بل لأن كل لقمة منها تحمل قصة: قصة فقر قديم، وإصرار على تحويل القليل إلى كثير.

وعندما يحين وقت الشواء، فـ"الشوراسكو" البرازيلي ليس مجرد طعام... بل حوار اجتماعي. الرجال يتناوبون على النار، كلٌّ منهم لديه طريقته في تقليب اللحم، ورشّ الملح، وتحديد متى يحين وقت التقديم. النساء يحضّرن السلطات، والأطفال يتسلّلون ليسرقوا قطعة قبل الأوان، ولا أحد يغضب... فهذه سرقة مغفورة، لأنها جزء من الطقس.

العائلة هي المعلم الأول، والملاذ الأخير. لا يوجد فرق حقيقي بين "بيتي" و"بيت خالتي" و"بيت عمتي"، فالجميع تحت سقف واحد وقت الحاجة. الجدّة لا تُرسل إلى دار رعاية... بل تُستشار في القرارات الكبرى. وحين تُصاب العائلة بمصيبة، لا يقال "اصبر" فقط... بل يُطبخ الحساء، وتُقال النكات الخفيفة، ويُزار المصاب يوميًا حتى يضحك مجددًا.

في الحزن، لا تُغلَق الأبواب، بل تُفتَح أكثر. في الجنازات، ترى الرجال يبكون دون خجل، والنساء يوزّعن الحلوى على الأطفال ليُبقوا الحياة مستمرة. لأن الموت، كما يقولون هناك، ليس نهاية... بل عودة إلى صدر الأرض.

كرة القدم في البرازيل ليست مجرّد رياضة... بل لحظة جماعية يتوحّد فيها الناس. الطفل يلعبها في الأزقة كما لو كانت وسيلته للتعبير، والمراهق يحلم بها كما يحلم الآخرون بمستقبلٍ أكاديمي. الكرة هناك ليست جلدًا منفوخًا... بل مفتاحًا للفرح، وللهوية، وللأمل. في كل حيّ، مرمى صغير، شبكة بالية، وضحكات تُغني عن الجمهور. اسم "بيليه" يُقال كما يُقال اسم الجدّ المؤسس... احترام، واعتزاز، وحكاية تُروى للأجيال. وفي مباريات المنتخب، تسكت المدن، وتتحوّل الشاشات إلى نو افذ للأمل. الفوز يُحتفَل به كما لو أن الجميع نجا من خيبة ما... والخسارة تُبكي، لكنها لا تَكسر.

الحبّ أيضًا لا يُخفى. الرجل يرسل وردة علنًا، والمرأة تضحك بلا تكلّف، والعناق لا يُخبّأ خلف الأبواب. كل شعور هنا له جسد، وله صوت، ولا أحد يعتذر عن مشاعره.

وهكذا، في البرازيل، لا تشعر أنك زائر... بل أنك كنت تسكن في جزء من هذه الروح دون أن تعرف. بلد لا يعدك بالكمال... لكنه يمنحك شيئًا أندر: الحميمية، والصدق، والشعور بأنك تنتمي، ولو للحظة، إلى عالم لا يخجل من أن يكون حيًا.

وما إن غادرت البرازيل بخيالي، حتى شعرت أنني لم أكن أتركها تمامًا... بل كنت أدخل إلى ذراع أخرى من نفس القارة، ذراع أقل صخبًا، لكن أكثر عمقًا: تشيلي. بلدٌ ضيّق من حيث الجغرافيا، لكنّه واسع من الداخل. يمتد على هيئة شريط طويل بين المحيط والجبال، وكأنّه يوازن نفسه بين الماء والصخر، بين التهوين والثبات. تشيلي لا تستعرض نفسها كما تفعل بعض البلاد، بل تهمس لك، وتدعوك لاكتشافها دون عجل، دون بهرجة، وكأنها تقول: "اقترب كما يقترب الحذر من السرّ، لا كما يقترب السائح من المشهد."

سانتياغو لا تُشبه عواصم أمريكا اللاتينية الأخرى. ليست مدينة المهرجانات، ولا الفوضى المنظمة. بل مدينة مشغولة بنفسها، بصمتها، بإيقاعها الخاص. تمشي في شوارعها فلا تسمع ضوضاء، بل أصواتًا منخفضة، وأحاديث مقتضبة، وكأن الناس هناك يعرفون كيف يختصرون الحياة في ما هو ضروري فقط. في المقاهي، لا أحد يرفع صوته، وفي القطارات، يُفضَّل الصمت على المجاملة. لا لأنهم باردون... بل لأنهم يعتبرون الهدوء نوعًا من الاحترام.

لكن الوجه الحقيقي لتشيلي لا يظهر في العاصمة فقط. شمالًا، في أتاكاما، تلك الصحراء التي تكاد تنسى المطر، يتعلّم الإنسان كيف يحيا من دون وفرة. وهناك، يكون الصمت سيد الحكاية. في الجنوب، تذوب المدن في الطبيعة، والناس في قراهم، يعيشون على إيقاع النار التي تُشعل، والمطر الذي يطرق الأسقف الخشبية، وعلى ذاكرة الجبال التي تحفظ الحكايات.

تشيلي بلد لا يضع الفرح على المسرح، بل يُبقيه داخل البيت. لا يحتفل بالصخب، بل بالمشاركة. لا يُقدّس الزائر لأنه غريب، بل يُرحّب به لأنه إنسان. هناك، لا يقال: "ضيفنا"، بل: "أحدنا اليوم." العادات اليومية

تسير بهدوء، من تحضير الخبز في الصباح، إلى طهو الحساء في المساء، مرورًا بتحية الجار بنظرة حقيقية لا تصنعها المجاملة، بل الألفة القديمة.

الاحتفالات عائلية أكثر منها عامة. الأعراس تقام غالبًا في الفناء الخلفي، حيث الجدات يرقصن بحذر، والصغار يركضون بأقدامهم العارية. لا دي جي، لا تأثيرات ضوئية... فقط موسيقى محلية، وأغانٍ من زمن مضى، و أيدٍ تتشابك دون تكلف.

أما الموت، فلا يُغطّى باللون الأسود فقط، بل يُحاط بالصبر. الجنازة هناك تُقام بخفّة لا تنفي الحزن، بل تُعامله برقة. يُقال إنهم لا يودّعون موتاهم بالبكاء وحده، بل بسرد القصص عنهم، وكأنهم يُعيدون رسم ملامحهم بالكلمات.

في تشيلي، لا شيء يُدفع إلى الأمام بالقوة... بل يُقاد بالسكينة. وهذا ما يجعلها بلدًا لا تقتحمه... بل تقترب منه بهدوء، وتحمله معك دون أن تدري، كزهرة وُضعت في كتاب ونسيت أنها هناك، لكنها حين تُفتح، تملأ الصفحة بعطر لا يُنسى.

وهكذا كانت تشيلي... بلدًا لا يترك فيك أثرًا صاخبًا، بل يُخلف بداخلك سكونًا ناعمًا، كأنك عدت من زيارة إلى أعماق نفسك لا إلى بلد آخر. وما إن أغلقت خلفي كتابها الهادئ، حتى فتحت صفحة جديدة من أمريكا اللاتينية، صفحة لها رائحة القهوة، وصوت الجبال، و إيقاع الطبول... كولومبيا.

كولومبيا ليست بلدًا يُروى بسهولة. لا تكفيه جملة، ولا يحتويه انطباع أول. من يراها من الخارج قد يكتفي بعبارات جاهزة: "بلد الكافيين"، "أرض الكارتلات"، أو "موطن الرقص". لكن الداخل يرى ما لا تقوله العناوين. يرى أن كولومبيا تُشبه وردة نبتت بين صخور صلبة، جميلة، ومؤلمة، ومعجزة في آنٍ واحد.

بوغوتا، العاصمة، تقع فوق جبال الأنديز، مدينة مرتفعة في كل شيء... في طقسها، في مزاجها، وفي نظرتها للحياة. صباحاتها تبدأ بنكهة القهوة الطازجة، لا في المكاتب، بل في الشوارع، حيث الباعة يسكبونها من أباريق نحاسية قديمة في أكواب بلاستيكية، ويقدمون معها "باندیخو" صغير وكلمة لطيفة. رغم زحمة السير والهواء البارد، تشعر أن المدينة

تمضي بإصرار ناعم، كما لو كانت تقول: "أنا لا أستعجل، لكنني لا أتوقف."

لكن الوجه الحقيقي لكولومبيا لا يظهر في العاصمة وحدها. في مدينة ميديلين، التي كانت يومًا مرادفًا للخطر، تعلّمت أن الشعوب مثل المدن: قد تُصاب، قد تتألم، لكنها تعرف كيف تُشفى. ميديلين اليوم تُشبه إنسانًا تعافى، لكنه لم ينسَ. الأبنية الحديثة لا تمحو الندوب، بل تتركها هناك... كشهادة على التحوّل. الناس في المقاهي لا يتحدثون عن الماضي كثيرًا، بل عن القصص الصغيرة: طفل تعلم ركوب الدراجة، أو جدة تعلّم حفيدها وصفة قديمة.

في كولومبيا، العادة ليست موروثًا ساكنًا، بل هي مقاومة جميلة. في المدن الساحلية مثل كارتاخينا، لا يسير الناس... بل يرقصون. ليس في المهرجانات فقط، بل في الحياة اليومية. تُسمَع الموسيقى من البيوت، من السيارات، من عربات الفاكهة. الأطفال يرقصون دون أن يدرّبهم أحد، وكأن اللحن جزء من الدم. هنا، حتى الحزن يُرقص... لا لأنهم لا يشعرون، بل لأنهم اختاروا ألّا يُحبَسوا فيه.

وفي الأعراس، لا يُحدّد الزمن بالدقائق... بل بالمشاعر. الزفاف يبدأ في لحظة، لكنه لا يُقال متى ينتهي. قد يرقص الناس حتى الفجر، وقد تتوقف الموسيقى لبرهة لأن الجدّة أرادت أن تسرد حكاية عن أول حبّ في حياتها. لا أحد يعترض... فهنا، كل لحظة لها قيمة، وكل صوت يُحترم، وكل عاطفة مرحب بها.

أما في الحزن، فهناك طقوس لا تقل دفئًا. الجنازات ليست وداعًا قاسيًا، بل جلسة حنين. يُقرَأ الشعر، تُغنَّى بعض الأغاني، وتُقدَّم القهوة بالحليب كما كان يحبها الراحل. وفي بعض القرى، يتركون الكرسيّ الذي كان يجلس عليه الميت فارغًا ليومين... لا لينساه الناس، بل ليكمل غيابه حضوره.

الأسواق الشعبية أيضًا فيها من الدفء ما يكفي ليجعلها أكثر من أماكن بيع. تشتري البهارات من امرأة تُخبرك كيف تستخدمها، ويعطيك بائع الفواكه قطعة تتذوقها وهو يحكي لك قصة موسمها. هنا، البيع ليس تبادل نقود، بل تبادل إنساني.

كولومبيا ليست سهلة، لكنها صادقة. فيها من الجروح ما لا يُنسى، ومن الفرح ما لا يمكن تجاهله. بلد علّمني أن العادة يمكن أن تكون درعًا، وأغنية، ووسيلة بقاء. علّمني أن الهوية تُغنّى أحيانًا حين لا تُقال.

وحين غادرت كولومبيا، لم أكن أتركها حقًا، بل كنت أواصل السير في دربٍ تشكّل من الموسيقى والتاريخ والحنين... درب قادني نحو واحدة من أكثر دول القارة تعقيدًا وفتنة: المكسيك.

بلد لا يكشف لك أسراره دفعة واحدة، بل يفتح لك الأبواب بابًا بابًا، وفي كل باب، مفاجأة لا تشبه الأخرى.

المكسيك ليست وجهة... بل رواية. تبدأ من الأزتك والمايا، وتستمر عبر الاستعمار الإسباني، ثم تنفجر بألوانها في أطباق الطعام، وجدران البيوت، ومهرجانات الشوارع. الشوارع هنا لا تسير في خط مستقيم، بل تلتف كما لو كانت تبحث عن ذاكرتها، عن جذور لا تزال تنبض تحت الأرصفة.

في مدينة مكسيكو، العاصمة، تشعر أنك تمشي فوق تاريخ لا يهدأ. الأصوات تتداخل: صوت بائع التورتيلا، مع موسيقى المارياتشي، مع تراتيل الكنائس، مع صرخات مشجعي كرة القدم. الكل هنا يعيش

بصوتٍ عالٍ، كأن الصمت لا يليق بالمكان. في الساحات، يجلس الناس جنبًا إلى جنب دون معرفة مسبقة، يتحدثون كما لو أنهم جيران منذ سنين. الابتسامة هنا ليست لُطفًا اجتماعيًا، بل عادة قديمة، تُرافقها ضحكة تخرج من القلب.

لكن الوجه الحقيقي للمكسيك لا يظهر فقط في صخب المدن، بل في طقوسها.

خذ مثلًا "يوم الموتى" – Dia de los Muertos – لن تجد مثله في أي مكان آخر. في هذا اليوم، لا يُحزن الناس على الراحلين، بل يحتفلون بهم. تُزيّن القبور بالزهور، وتُوضع صور الراحلين على مائدة الطعام، ويُعتقد أن الأرواح تزور أحباءها في هذا اليوم، فتُعدّ لهم أطعمتهم المفضلة وتُحكى لهم الحكايات من جديد. إنه حزنٌ ملون، وفرح مملوء بالدموع، كأن الوداع ليس نهاية، بل زيارة مؤقتة بين عالمين.

أما الطعام، فليس مجرد نكهة... بل بيان ثقافي. التاكو، الشوكولاتة، الشطة، الأطباق الثقيلة ذات الطعم المعقّد... كلها تقول شيئًا عن هوية هذا الشعب. في السوق الشعبي، لا تشعر أنك تشتري فقط، بل

تشارك في طقس حي. البائع لا يبيعك السلع فقط، بل يشرح لك تاريخها، وكيف طُبخت، ومن أين جاءت التوابل. في كل قضمة، طيف من الماضي، وذوق من الحاضر، ولمسة من يد جدّة تعرف جيدًا أن المطبخ ليس مكانًا، بل وطنًا.

وفي الريف، ترى مكسيكًا أخرى. مكسيك الفلاحين، والقبعات العريضة، والخيل، وطقوس الزراعة التي توارثها الناس من الأجداد. القرى هناك لا تزال تؤمن بالعين، وبالشفاء بالأعشاب، وبأنّ الأرض تستمع حين تتحدث معها.

في الأعراس، لا يُهم عدد المدعوين، بل عدد من يرقص من القلب.

وفي الجنازات، لا يُقال "إنا لله وإنا إليه راجعون"، بل تُنشد الأغاني، وتُطلق المفرقعات، وكأن الرحيل دعوة للفرح بالحياة التي عِشناها معًا.

المكسيكيون لا يعيشون بلا صراع، لكنهم لا يسمحون له بأن يُطفئ نورهم. يواجهون الصعوبات بأغانٍ، ويستقبلون اليوم الجديد بفطور غني، وحكايات تبدأ من "كان يا ما كان" وتنتهي بابتسامة.

وهكذا خرجت من المكسيك كما خرجت من الحلم... أحمل معي ألوانًا لا تزول، وأصواتًا تُرافقني كأنني ما زلت هناك.

فهذا البلد لا يغادرك بسهولة، لأنه حين يسكنك، يفعلها مثل وشم... لا يُمحى، بل يُصبح جزءًا من جلدك.

وما إن بدأت تتلاشى ملامح المكسيك من ذاكرتي، حتى بدأت تظهر جبال الأنديز أمام ناظري، كأنها تناديني من بعيد. وهكذا وصلت إلى بيرو، لا من خلال طائرة، بل عبر طبقاتٍ من التاريخ، وعبر سكون الجبال الذي يحمل أسرارًا لا تُروى بسهولة. بيرو ليست بلدًا سياحيًا فحسب... بل خزان حضاري عمره آلاف السنين، وساحة بين الأسطورة والحياة اليومية.

ليما، العاصمة، تفتح ذراعيها بحذر. ليست مدينة مدلّلة، لكنها حقيقية. فيها أحياء ساحلية تفوح منها رائحة المحيط الهادئ، وأسواق شعبية يختلط فيها صوت الباعة بزقزقة العصافير، وشوارع قديمة رُصفت بالحنين أكثر من الحجارة. لا أحد هناك يتصنع الابتسامة، لكنها إذا جاءت، فإنها تعني كل شيء. في ليما، يتعايش الناس مع الزمن، لا

يركضون خلفه، بل يرافقونه ويمرّون معه بخطوات موزونة، كما لو أنهم يرقصون رقصة قديمة لا يجوز كسر إيقاعها.

لكن الوجه الأعمق لبيرو لا يظهر إلا في الداخل... في كوسكو، المدينة التي كانت ذات يوم قلب إمبراطورية الإنكا. لا تستطيع المشي هناك دون أن تشعر أن الأرض نفسها تتحدث. الحجارة ليست حجارة، بل شواهد على عظمة لا تزال تنبض، وأسرار لم تُفك بعد. في كوسكو، تقف المعابد جنبًا إلى جنب مع الكنائس، واللغة الإسبانية تتقاطع مع الكيتشوا، وكأن المدينة اختارت ألا ترفض الماضي، بل تضمّه إليها.

أما "ماتشو بيتشو"، فهي ليست فقط وجهة للصور الفوتوغرافية... بل لحظة تأمل. حين تصل إليها، بعد طريق طويل يتخلله قطار وجبال وغيوم، تشعر وكأنك تقف على شرفة تُطل على عصرٍ مختلف. الهواء هناك أرق، والضوء أنقى، والصمت أكثر فخامة. الناس لا يتكلمون كثيرًا عند الوصول... بعضهم يبكي، وبعضهم يضحك بهدوء، لكن الكل يشعر أنه في حضرة شيء أكبر من مجرد آثار.

بيرو بلد يقدّس الطقوس. لا شيء يُمارَس بلا معنى. حتى كوب الشاي – أو ما يُسمى بـ"ماتيه دي كوكا" – لا يُشرب فقط لطرد دوار المرتفعات، بل يُقدَّم كتحية، كأنك تقول للضيف: "أنت هنا، والجبل يراك."

الطعام في بيرو يستحق كتابًا كاملًا. من "سيفيتشي" السمك المنقوع بالليمون، إلى أطباق البطاطا المتنوعة (والتي تجاوزت فيها الأنواع الألف)، إلى ذرة تُسلق بحب وتُقدَّم مع الجبن... كل شيء هنا يحكي عن شعبٍ تعلّم أن يُبدع بما تتيح له الطبيعة. الأسواق هناك ليست فقط لشراء الحاجيات، بل لمشاهدة الحياة تنبض: امرأة تحمل طفلها على ظهرها في قطعة قماش مزركشة، ورجل يبيع الأعشاب ويتحدث عن فوائدها بلغة تخلط بين الطب والمعجزة، وأطفال يركضون بين الأكشاك وكأنهم يختصرون كل الحكاية في ضحكة.

الأعراس البيروفية، خاصة في القرى، لا تشبه شيئًا آخر. تبدأ غالبًا في الفجر، وتستمر حتى اليوم التالي. فيها رقصات جماعية، أقنعة تراثية، وجوقات موسيقية تعزف ألحانًا تشبه خليطًا من الجبل والبحر. الجميع يشارك، والفرح يُوزّع كما يُوزّع الطعام: بكثرة، وبكرم.

أما في لحظات الموت، فتظهر الفلسفة الأنديزية بوضوح. لا يُقال إن الشخص "مات"، بل "عاد إلى الأرض"، وكأن الجسد يُرجَع إلى حضن أمّه الأولى، إلى التربة التي خرج منها. تُغنّى له الأناشيد، وتُرش الزهور، وتُروى عنه القصص... لأن البيروفيين يعتقدون أن من لا يُذكَر، يموت مرتين.

بيرو ليست فقط بلد حضارة... بل بلد يحترم الحياة كما هي: ببطئها، بتعقيدها، بارتباكها الجميل. كل شيء فيها له طقسه، له مقامه، وله مكانه في القلب. هي بلد لا يركض خلف العالم... بل يدعوه للجلوس قليلاً، لشرب شاي دافئ، والنظر إلى جبل، والتفكر في ما مضى وما سيأتي.

وما إن خفّت خطواتي من على أحجار كوسكو القديمة، حتى شعرت أن الروح نفسها تقودني إلى ارتفاع آخر، إلى بلدٍ يشبه ظلّ جبل يمرّ في الحلم، ولا يغادر بعد اليقظة: بوليفيا.

بوليفيا ليست بلدًا يقدّم نفسه بسهولة، بل يُشبه الباب الخشبي العتيق الذي لا يُفتح إلا إن طرقت عليه بلطف. هنا، لا تستقبلك المدن

بوهجها، بل تستقبلك الأرض... بالألوان، بالمرتفعات، بصوت الريح وهو يهمس بين جبال الأنديز، وكأنه يقرأ لك فصلاً من كتاب قديم.

لاباز، العاصمة، هي مدينة معلّقة بين السماء والهاوية. ترتفع فوق ٣٥٠٠ متر عن سطح البحر، وكأنها اختارت أن تعيش بعيدًا عن الضجيج، قريبًا من السماء. الطرق فيها تتلوّى كأنها أسئلة لم يُجب عليها بعد، والمباني تتناثر فوق التلال كحروف في قصيدة لم تُكتب كلها. الناس هناك يمشون ببطء، لا لأنهم كسالى، بل لأن الهواء رقيق... والحياة لا تُعاش بسرعة في الأعالي.

النساء يرتدين التنّورات الواسعة، والقبعات التقليدية المستقيمة، كأنّهنّ يُصرن على أن تكون الجذور مرئية. تبيع إحداهنّ "الكوينوا" والبطاطا المجففة، فيما تروي الأخرى حكايات عن الأرواح التي تسكن الجبال. لا يُعاملنك كغريب، بل كغافل... ويبدو أنهن مؤمنات بذلك المثل الشعبي الذي يردّده أهل المرتفعات:

"لا تسأل الجبل عن الطريق... اسأل من يعيش فيه."

وفي الأسواق، يُباع كل شيء: أعشاب للشفاء، تمائم للحب، حيوانات صغيرة مجففة تُستخدم في طقوس تُرجع أصلها إلى ما قبل الإنكا.

التديّن هنا لا يتعارض مع السحر، والحداثة لا تلغي الإيمان القديم بأن الطبيعة ليست مجرد منظر... بل كائن يجب مصادقته، أو الحذر منه.

بوليفيا لا تصنع مناسبات الفرح، بل تزرعها في يومياتها. في الأعياد، تخرج العائلات إلى الساحات، تحمل أطباق "سالتياس" الساخنة، وتعزف الموسيقى من القيثارات والطبول. الرقص لا يُؤدى... بل يُعاش. الجميع يشارك: الكبير قبل الصغير، الرجل بجانب المرأة، وحتى الجدّ الذي لا يقوى على الحركة... يكفيه أن يلوّح بعصاه على وقع الإيقاع.

الأعراس تقام ببطء... تبدأ من يوم الخطوبة، حيث تُقدَّم الهدايا على مراحل، وتُباركها الجدّات بعبارات تحفظها ذاكرة الجبال. وفي الزفاف، لا تُقدَّم الكعكة أولًا، بل طبق الأرز واللحم المطهوّ في قدر الطين، لأنه كما يقولون: "الفرح لا يملأ القلب حتى يملأ البطن."

أما الموت، فله فلسفة مختلفة هنا. حين يُدفن الميت، توضع بجانبه بعض أشيائه المحببة، لأنهم يؤمنون أنه سيحتاجها في الطريق الآخر. وتُقام له "الواكاتا" — تجمع عائلي مليء بالغناء والقصص والنكات الخفيفة — لأن الحزن، كما يقولون، لا يجب أن يُترك وحيدًا.

كرة القدم في بوليفيا ليست فقط رياضة... بل استعراض للقدرة على التحمل. الملاعب مبنية في أعالي الجبال، والخصم دائمًا يُرهق من الارتفاع قبل صافرة البداية. لكن أهل بوليفيا لا يتباهون بذلك، بل يبتسمون ويقولون: "من يعتد على الهواء الخفيف... لا ينهزم بسهولة."

الحب؟ لا يُقال كثيرًا، لكنّه يُقدَّم في كل صباح على شكل فطور، وفي كل مساء على شكل بطانية إضافية دون أن يُطلب.

بوليفيا بلد لا يهمس كثيرًا، لكنه حين يتكلم... يروي لك ما لا تجرؤ الجبال على كشفه. بلد يجبرك على التمهّل، على الإصغاء، على أن تفهم أن بعض الثقافات لا تُروى بالكلمات، بل تُستشعر في نبض الأرض، في حرارة الطعام، وفي صدى ضحكة تطلع من بين جبلين كأنها تقول: "أنت هنا... ولست وحدك."

وما إن أغلقت كتاب بوليفيا، حتى شعرت أن صوت الريح هناك ما زال يلاحقني، كأنه لا يريد أن أخرج من جبالها العالية ولا من صمت أهلها العميق. لكن الرحلة لا تنتظر أحدًا، والذاكرة سرعان ما فتحت لي بابًا جديدًا... بابًا مطلًّا على بلد صغير في حجمه، واسع في قلبه: السلفادور.

في السلفادور، لا تصفعك الحياة من أول نظرة، بل تأخذ بيدك بهدوء. كل شيء فيها يُقال بنبرة منخفضة، حتى الطبيعة هناك لا تصرخ. البحر يتنفّس بإيقاع منتظم، الجبال تحتضن القرى كما تحتضن الأم طفلها في الليل، والناس... الناس هناك لا يفتحون لك الباب بالكلام، بل بكوب من القهوة المرة.

سان سلفادور، العاصمة، ليست مدينة لالتقاط الصور... بل مدينة لتتعلّم الصبر. الزحام فيها لا يُزعج، بل يُذكّرك أنك وسط ناس يعرفون بعضهم، يعرفون أن البائع في الزاوية فقد ابنه، وأن صاحبة المخبز تصحو كل فجر لتجهز خبز الذرة "البوبوسا" لعُمال الحي. الرائحة هناك لا تشبه أي مكان: خليط من الرماد، والبنّ المطحون، والذرة الساخنة، وأحيانًا... الحنين.

وفي القرى، الحياة أشبه بغزلٍ صامت. النساء يغزلن بالصوف والكلمات، يروين حكايات من زمن الحرب، من زمن المطر، من زمن الحبّ الذي عبر دون أن يُكمل. وعلى جدران البيوت الطينية، تجد رسومًا بسيطة، لكنها تحكي أكثر مما تفعل معارض الفنّ: أمّ تضحك، طفل يجري، شجرة تقف، وسماء لا تنتهي.

العائلة في السلفادور ليست وحدة اجتماعية فقط... بل درع. كل فرد يُحتضن، لا يُترك ليواجه الدنيا وحده. حين يمرض أحدهم، لا تُرفع الأدعية فقط، بل تُحضَّر الوجبات، وتُبدَّل الأدوار، وتُغلق المحالّ في سبيل زيارة واحدة. ليس لأنهم لا يملكون الوقت، بل لأنهم يملكون شيئًا أهم: الإحساس بالواجب العاطفي.

الاحتفالات هنا لا تُنظَّم، بل تتكوّن تلقائيًا. عرسٌ بسيط في الفناء يتحول إلى رقصة جماعية، طفلٌ وُلد يتحول إلى عذرٍ لصناعة الحلوى. والأمثال الشعبية لا تُقال للتسلية، بل لتفسير الحياة. أكثر ما علق في ذهني قولهم: "من يتأخر عن الركب، يأكل الغبار." مثلٌ قديم، لكنه يصلح لوصف فلسفة الحياة هناك: سر في وقتك، لكن لا تتأخر... لأن الحياة لا تنتظر المترددين.

في السلفادور، حتى الحزن لا يُستعرض. حين يُفقد شخص، تُضاء له الشموع ليلًا، وتُقرأ له الحكايات كما لو أنه ما زال يستمع. وتُقدَّم القهوة في الجنازة، لا لتخفيف المصاب، بل لتأكيد أن الدفء لا يجب أن يغيب، حتى في أصعب اللحظات.

الناس هناك يشبهون الشجر العتيق... لا يتباهون بالنمو، لكنهم يظلون و اقفين. يشبهون التراب الرطب... لا يلمع، لكنه يحمل الحياة. وحين تخرج من بلدهم، لا تشعر أنك غريب عنه... بل كأنك تركت صديقًا قديمًا لم تلتقِه منذ زمن، لكنه تذكّرك دون أن تسأله.

وهكذا، بعد أن طويت آخر صفحات بوليفيا، شعرت أنني قد بلغت النهاية، أو هكذا ظننت. لكن شيئًا ما ظلّ يربكني، وكأن أمريكا اللاتينية لا تريدني أن أغادرها دون أن أمرّ على صوتها الأعمق، و أثرها الأقدم... ذاك الذي يسكن في الجبال لا في المدن، ويتحدث بلغات لا تُكتب، ويُروى من جدّة لا من كتاب.

كان لا بد أن أُصغي لذلك الصوت، وكان مصدره غو اتيمالا.

بلد صغير في حجمه، عظيم في ذاكرته. لا يقف عند حاضر الناس فقط، بل ينهض من أعماق حضارة المايا، من المعابد، من النقوش، من أساطير لا تزال تُروى كأنها حدثت البارحة. في غو اتيمالا، لا تُقاس قيمة الشيء بحداثته، بل بعمره. الكهولة هنا فضيلة، والقديم مقدّس، والذاكرة ليست عبئًا... بل كنز يُتناقل.

في العاصمة غواتيمالا سيتي، تلمح التناقضات تمشي جنبًا إلى جنب: ناطحات صغيرة تحاول الصعود، وأسواق شعبية ترفض أن تنزل عن عرشها. باعة يصرخون أسماء الخضار، وصبية تبيع الأساور الملونة التي حيكت بخيوط الصبر. لكنك حين تبتعد قليلًا إلى المرتفعات، تبدأ اللغة بالتغيّر. لا أقصد كلمات الإسبانية، بل نبرة الصوت. الناس هناك لا يرفعون أصواتهم كثيرًا، كأنهم يتكلّمون وهم يستمعون في الوقت نفسه.

في قرى المرتفعات، النساء يلبسن الـ"هويبل"، ذلك الرداء المطرّز يدويًا، لا تخلعه حتى العاملات في الحقول. ولونه لا يُختار عبثًا، بل يدل على القرية، وعلى العائلة أحيانًا. وكأن الرداء ليس مجرد قطعة قماش... بل سيرة ذاتية تُرتدى.

وعند الغروب، حين تنطفئ الشمس على قمم البراكين، ترى الصغار يتجمّعون حول كبار السن لسماع القصص. لا يملّون التكرار، لأن الحكاية ليست للمتعة فقط، بل للتربية، ولحماية الروح من الضياع في عالم سريع النسيان. أحد الحكماء هناك قال لي مثلًا شعبيًا ما زال عالقًا في ذهني:

"من لا يعرف أين وُلد، سيضيع أينما ذهب."

وهذا تمامًا ما تؤمن به غواتيمالا... أنك لا تعرف نفسك حتى تعرف جذورك.

العادات اليومية هناك تسير كما تسير الجداول: هادئة، ثابتة، وعميقة. الإفطار يُؤكل مع العائلة، حتى وإن كان مجرد كوب من القهوة وقطعة من خبز الذرة. وعندما تُقام الولائم، لا أحد يُدعى ببطاقات، بل بكلمة: "تعال" – وإن حضرت، فأنت واحد من العائلة، ولو لم يسبق لك أن زرتهم من قبل.

الأعراس لا تُبالغ في تفاصيلها، لكنها تفيض بدفئها. الرقصة التقليدية تبدأ بدائرة، ثم تنفرج وتدور، وكأنها ترمز إلى الحياة: ضيقة حين نولد، ثم تتسع بنا كلما كبرنا. والعرسان لا يتركان المكان قبل أن يرقصا مع كل الحاضرين، واحدًا واحدًا... لا مجاملة، بل تقديرًا.

أما في الموت، فلا يُدفن الجسد في صمت، بل يُغنّى له. النساء يُرددن التراتيل بلغات قديمة، والأطفال لا يُبعَدون عن الجنازة، بل يُشركون فيها ليتعلموا من الصغر أن الموت ليس غريبًا... بل جارٌ نودّعه كل حين، وننتظره دون فزع.

غواتيمالا لا تُهرك، بل تلمسك ببطء. لا تصرخ في وجهك، لكنها تهمس في قلبك. قد تمرّ بها سريعًا، وتظن أنك لم تأخذ منها الكثير... لكن بعد فترة، وأنت في منتصف ضجيج مدينة أخرى، تتذكر شيئًا ما: وجه عجوز، رائحة خبز، قصة عن جبل، أو صوت ناي خافت. هكذا تبقى غواتيمالا... لا كذكرى، بل كجذر نبت في داخلك دون أن تنتبه.

وحين انتهيت من أمريكا اللاتينية بوصولي إلى غواتيمالا، شعرت أنني كنت أضع آخر نقطة في سطرٍ طويل من المشاعر المتشابكة، لا سطرًا من جغرافيا. هناك، بين المرتفعات والأسواق والضحكات، كانت هذه القارة تقدم لي دروسًا لا تُكتب، بل تُعاش.

كل بلد فيها علّمني شيئًا مختلفًا عن العادة: كيف تكون مرآةً للناس، لا فقط تقليدًا موروثًا. كيف تكون العادة لغة خفية، تسير تحت الجلد، وتكشف ما لا تقوله الكلمات. في كل زاوية، في كل مثل شعبي، في كل رائحة حساء، كنت أجد شعبًا يحاول أن يحتفظ بنفسه، رغم كل ما يحاول أن يذوّبه.

من الأرجنتين التي ترقص التانغو كأنها تعتذر للعالم عن قسوته، إلى البرازيل التي تحتفل بالحياة حتى وهي تتعثّر، إلى بوليفيا التي تحمل أرضها على ظهرها، وغواتيمالا التي تغلق الباب وتفتحه في الوقت ذاته... كانت الرحلة مليئة بما لا يمكن نسيانه.

الآن، أُغلق هذا الفصل، لا لأن الحكاية انتهت، بل لأن فصلًا جديدًا ينتظر أن يُروى.

أستدير بخيالي، وأوجّه بصري نحو الأرض التي تسكنني كما أسكنها... نحو الشرق الأوسط، حيث تُولد العادات من صلب التاريخ، لا من زينة الحياة.

إلى هناك، حيث البيت لا يُبنى فقط بالحجر... بل بالكلمة، والكرم، والهيبة.

إلى هناك، نكمل.

الفصل الرابع:

العالم العربي– حيث تُروى العادة كأنها سيرة ذاتية

ما إن أغلقت فصل أمريكا اللاتينية، حتى شعرت أنني لست فقط أنهي رحلة، بل أتهيّأ لعبور بابٍ قديم... باب يشبهنا أكثر مما نظن. فالعادات هناك – في أمريكا الجنوبية – كانت تُشبه الرقص في الأزقة، أو خبزًا يُطهى ببطء في بيوتٍ لا تُغلق. أما هنا، في الشرق الأوسط، فالعادات تُشبه الجدّ حين يتكلم، والأمّ حين تُعلّم، والجِدار حين يُعلّق عليه التاريخ.

هنا، لا تبدأ العادة من سلوكٍ فردي، بل من سردٍ جماعي. لا تُتعلَّم فقط... بل تُورَّث. ولا تُشرح بالكلمات... بل تُشعَر.

في هذا الفصل، لن نكتفي برؤية ما يفعله الناس... بل سنتلمّس ما يجعلهم يفعلونه. سنفهم لماذا يُقدَّم الشاي قبل الكلام، ولماذا تسبق "تفضّل" كل حوار، ولماذا حين تطرق باب عربي، لا يسألك أحد: من أنت؟ بل يقول لك: البيت بيتك.

الشرق الأوسط لا يلبس العادة... بل يسكنها.

ومن هنا، تبدأ الرحلة.

ما إن فتحت خريطة الشرق الأوسط في رأسي، حتى لم أحتج وقتًا لأعرف من أين أبدأ فوجدت نفسي في وطني مصر... فمصر لا تحتاج إلى بوابة دخول، لأنك تدخلها دومًا من الذاكرة، من درس التاريخ الأول، من الأغنية التي سمعناها صدفة، من الضحكة التي نعرفها حتى قبل أن نسمعها.

مصر ليست مكانًا على الخريطة... بل خريطة قائمة بذاتها.

في القاهرة، تختلط الأزمنة كما تختلط الشوارع. شارع فيه عمارة فرعونية الطراز، تليه مقهى شعبيّ، ثم مول حديث، ثم جامع قديم، ثم طفل يركض حافيًا، ثم سيارة فارهة تمرّ بسرعة، ثم بائع ينادي: "يا بلاش يا بلاش!" كأن المدينة قررت أن تضع كل تناقضاتها في مشهد واحد، وتقول: هذا نحن... فافهمنا إن استطعت.

الناس هنا لا يمشون فقط، بل يؤدّون عرضًا حيًا. الجدل جزء من الحوار، والضحك جزء من الجد، والنكتة سلاح يومي. المصري لا

يسأل: "كيف حالك؟" فقط، بل يُضيف: "عامل إيه بقى مع الأيام دي؟"، وكأنه يعرف أن الحال لا يُفهم من كلمة، بل من حكاية، ومزحة، وتنهيدة خفيفة في منتصف الجملة.

في مصر، "اللي ياكل معاك عيش وملح ما يخونش" ليست فقط مثلًا شعبيًا، بل دستور اجتماعي. فالخبز هنا ليس طعامًا فقط، بل رمزًا للرباط، والملح ليس نكهة... بل عهد. الجار لا يُترك وحيدًا، حتى لو لم تكن تعرف اسمه. وإن مات أحد في الشارع، تجد العابرين يوقفون يومهم ليشيّعوه. حتى الغرباء، يُرثى لهم بصوتٍ واحد: "الله يرحمه كان طيب".

في بيوت مصر، الأم لا تطبخ فقط... بل توزع العدل، وتنسّق العلاقات، وتعرف من غضب من من، وتقرر من يُصالح أولًا. الأب لا يتكلم كثيرًا، لكنه موجود في كل شيء... في أول لقمة، في غطاء الغسالة، في صمت الجلسة، وفي العين التي تر اقب دون أن تتدخل.

العائلة هي وطن مصغّر. "الخال والد"، و"العم سند"، و"الجدّ جذر العيلة". لا أحد يُنسى. حتى من مات، يبقى على الحائط في صورة مزيّنة

بإطار ذهبي، وتُذكر مواقفه في كل مناسبة، وكأن الزمن لا يمرّ على الذاكرة في مصر، بل يجلس بجانبها ويستمع معها.

في الريف، الطقوس اليومية تبدأ قبل الفجر. النساء يقمن بإعداد الخبز الطازج في الأفران الطينية، ويُوزّع على الجيران قبل أن تطلع الشمس. الغريب يُرحّب به بالشاي الثقيل وكوب من اللبن، ولا يُسأل عن اسمه قبل أن يُقال له: "اقعد ارتاح". العادة هناك تمشي في العروق، لا تحتاج لقوانين.

في الأفراح، الرقص ليس ترفًا... بل إعلان قوة. العريس يُزفّ على أكتاف الأصدقاء، والنساء يطلقن الزغاريد من نوافذ البيوت حتى لو لم يكنّ مدعوات. "الفرح فرح بلد"، كما يقولون. ولا ينام أحد في الليلة السابقة دون أن يعرف لون فستان العروسة، وطبيعة "المعازيم"، وكم مرة رقص خالها.

أما في الحزن، فالوضع يختلف لكنه لا يبتعد عن روح الجماعة. المآتم تُقام في الشوارع، الرجال يجلسون على الكراسي في حلقات، ويُتلى القرآن عبر مكبرات الصوت، بينما النساء في البيوت يُجهزن الطعام

للمعزّين. لا يُترك أهل الميت وحدهم، ولا يُقال لهم "شدّ حيلك" ككلمة عابرة، بل كطقس له وقته، ومكانه، ونبرته الخاصة.

في الأحياء الشعبية، المقهى ليس مكانًا لشرب الشاي فقط، بل مجلسًا حقيقيًا. تُناقش فيه السياسة، والأسعار، والزواج، وحتى تفسير الأحلام. الشباب يلعبون الطاولة، والكباريتفرجون على مباريات الأهلي والزمالك كأنّها معارك شخصية، والعمّ عبده – أو أيًا كان اسمه – يروي نكتة قديمة يعرفها الجميع، لكنهم يضحكون عليها كل مرة كأنها تُقال لأول مرة.

وفي الفن، كل شيء حيّ. الأغنية ليست صوتًا، بل موقف. من عبد الحليم إلى مطربين من الشارع المصري امثال حمو بيكا وغيره مع اختلاف الازواق لدى المصرين وحبهم للفن ، مصر تصنع ذوقها بنفسها، ولا تخجل من انتقالاتها، لأنها تؤمن بأن لكل زمن نغمة، ولكل شارع جمهوره.

وحتى في أصعب الظروف، تجد المصري يقول "ربنا يسهل"، أو "عدّت على خير"، وكأنه يملك إيمانًا فطريًا بأن الأيام تُداوى، والقلوب تُربّى، والمشاكل تُحلّ بطريقة ما.

مصر لا تقول لك إنها عظيمة... بل تجعلك تشعر بذلك دون أن تنتبه. بلد تعرف كيف تمسك بقلبك، ثم تتركه ينبض على طريقتها. لا تنقلك فقط في الأزقة والمعالم، بل في المشاعر، والروائح، واللهجة، والعين التي تعرف كيف تبتسم وفيها وجع، وكيف تدمع وفيها رضا.

ما إن خرجت من عباءة مصر، حتى وجدتني أُطالع صفحة أخرى في كتاب الروح... صفحة عنوانها: لبنان بلدٌ لا يُشبه غيره، ولا يحاول أن يُشبه أحدًا. صغيرٌ في المساحة، لكنه واسع في التجربة. كأنّه مرآة مكسورة تعكس ألف وجه، كل منها يقول: هذه الحكاية لي.

في بيروت، لا تسير فقط... بل تمشي بين المتناقضات، وكأنك تمسك كوب قهوة في يد، وفي اليد الأخرى قنبلة موقوتة من الحنين. هنا، ترى شارعًا تنبت على رصيفه وردة، وفي الجدار المقابل رصاصة ما زالت معلّقة في الذاكرة.

في لبنان، الحياة لا تُعاش... بل تُواجه.

اللبناني لا ينهض فقط كل صباح... بل ينهض متحديًا. يسير بخفة على الحافة، ويضحك وكأن الضحكة درع. حين تسأله عن حاله، قد يجيبك

بمثل شعبي كافٍ ليشرح فلسفة وطن بأكمله، كأن يقول: "اللي بيغرق بيتعلّق بقشّة"، لكنه لا يغرق... لأنه ببساطة، يسبح بعناد.

في البيوت اللبنانية، الطاولة ليست مجرد مكان للأكل، بل ساحة لقاء يومي. الأم تُحضر "التبولة" و"الكبة" وكأنها تنقش ذاكرة الوطن على الصحون. الجدّة لا تزال تحكي عن جبل صنين، والعمّ يتحدث عن الحرب، والأخت تستعرض أغنية فيروز الجديدة، والكل يأكل ويضحك ويتذكّر كأنهم يمارسون وطنهم من خلال الذاكرة الجماعية.

وفي القرى الجبلية، ترى البيوت متلاصقة كأنها تتعانق من الخوف والعُزلة. الرجال يجلسون عند المداخل، يتحدثون عن المواسم، والكرز، وعن صديق هاجر إلى كندا منذ عشر سنوات وما زال يُرسل "صورة الثلج". النسوة يخبزن "المنقوشة" على الصاج، وعيونهن تراقب السماء، وكأن المطر ليس ماءً فقط... بل وعد.

أما في الأعراس، فالأغاني لا تبدأ من مكبّرات الصوت، بل من القلوب. الدبكة ليست مجرد رقصة... بل إعلان انتماء. حتى من لا يجيد الخطوات، يقفز بكل كيانه. والعروس لا تُزف وحدها، بل يُزف معها الحيّ بأكمله، والمائدة تُفتح بلا حساب، وكأن الفرح يجب أن يُوزّع على

الجميع وفي الجنازات، الصمت لا يعني الغياب... بل الامتلاء. تُقرأ الفاتحة، وتُروى الحكايات، ويقال عن الميت: "كان قلبه أبيض"، حتى لو اختلفوا معه في السياسة. لأن في الموت، اللبناني يعود إنسانًا فقط، بلا انحياز.

في لبنان، تُنقش الكلمات على الجدران، لا لتجميلها... بل لتذكيرها بأنها شاهدة. "نحن باقون"، "حبّوا بعض"، "سلام للضيع"، جمل عابرة لكنها تحمل صوت جيل كامل لا يريد أن يُنسى. والشباب هناك لا يهربون من وطنهم... بل يأخذونه معهم إلى المنفى، يزرعونه في أغنية، أو يصنعون منه فيلما، أو يوشمونه على أذرعهم.

والحب في لبنان ... أحيانًا لا يحتاج إلى كلمات بل نظرة من نافذة، وردة تُرمى من شرفة، وقلب ينتظر، الرجل لا يخجل من أن يقول "بحبك" علنًا، والمرأة تعرف كيف تبتسم كأنها اختارت أن تُحبّ... لا أن تُؤخذ.

ورغم كل شيء – الكهرباء المقطوعة، الأسعار المرتفعة، الأصوات المرتفعة، النشرات التي تبدأ بالحزن وتنتهي بالحذر – يبقى في قلب اللبناني شيء يشبه الزهرة التي تُقاوم الأسمنت.

لبنان بلد لا تتعرف عليه من الصور... بل من شعوره من تلك الغصّة التي تأتيك فجأة و أنت تشرب قهوتك، من الموال الذي يُغنّى في السهرة، من وجه رجل في الخمسين ما زال يضحك كأنّه ولد للتو، ومن يد امرأة تمسح عن طفلها الغباروتقول له: "ما تخاف... نحنا خلقنا أقوياء".

وما إن غادرت بيروت بخيالي، حتى شعرت أنني لا أبتعد كثيرًا، بل ألتفّ قليلًا على الخريطة لأصل إلى بلدٍ لا يُزار فقط... بل يُتذكّر حتى قبل الوصول إليه: سوريا.

سوريا ليست مجرد وطن، بل مشهد دائم في الذاكرة الجماعية. بلد إن قلت فيه "الشام"، كأنك نطقت باسمٍ واحد للعراقة، والورد، والياسمين، وللجرح أيضًا. شامٌ تحمل داخلها ما لا تحمله العواصم عادة: عبق سوق الحميدية، ظلّ الجامع الأموي، وصدى صوت صباح فخري في الأزقة القديمة.

دمشق لا تُحكى، بل تُتنفَّس. تمشي فيها وكأنك تمشي فوق طبقات من القصص... كل جدار فيها سمع شيئًا، وكل شباك رأى شيئًا، وكل حجر فيه ذاكرة. حتى المقاهي، ليست أماكن للجلوس فقط، بل أرشيف

مفتوح. فنجان القهوة هناك له نكهة زمنٍ قديم، وصوت النادل حين يقول "تكرم عيونك" كأنه يرُقّ لك، لا يردّ عليك فقط.

وفي الشام، ليس الطعام مجرّد وجبة... بل لقاء. "الكبّة" هناك ليست طبقًا، بل عادة تتوارثها النساء في البيوت، وتُحضّر بشيء من الشعر، وكثير من الصبر. ورق العنب يُلفّ على إيقاع حكاية، والموائد لا تكتمل قبل أن تجتمع عليها ثلاث أجيال على الأقل. الطعام في الشام لا يُطهى فقط، بل يُروى، ويُحبّ، ويُزيَّن بالضحك والذكريات.

وفي الأعراس الشامية، لا تبدأ الزفة بالموسيقى، بل بالهتاف: "أللّه... صلّي عالنبي!" ثم يعلو صوت "الدبكة"، وتلتصق الأقدام بالأرض، وكأنها تُعلن الانتماء قبل الفرح. العروس ليست وحدها بطلة الحفل، بل أمّها، وجدّتها، وأخواتها... كل واحدة منهن تحفظ لحنًا، وتردد دعاءً في قلبها.

أما الموت، فلا يُستقبل بالدموع فقط، بل بكلمة: "الله يرحمه"، تقال كأنها صلاة مختصرة لكل ما لا نستطيع قوله. في الجنازات، لا يُدفن الميت فقط، بل يُعاد إلى الأرض كما يُعاد الابن إلى حضن أمّه، ويُروى عنه كما يُروى عن شهيدٍ في حكاية قديمة.

حتى في الأسواق، ترى العادة تمشي على قدمين. البائع لا يناديك ليبيع فقط، بل ليسألك عن أهلك. يضع لك حبّة فواكه زيادة لأنه "بيحبّك"، لا لأنه يُجامل. المساومة ليست تحديًا، بل فنّ، تفتح به أبواب الحديث، لا خفض السعر فقط.

السوريّ لا يقول لك "وداعًا"، بل "منشوفك"، كأن اللقاء قدر لا يُلغى. وحتى في الغربة، تجده يحاول إعادة صنع الشام من تفاصيل صغيرة: عطر، فنجان، صورة، أو حتى طبق فول على عجل.

وإذا أردت أن تعرف روح الشعب، فاستمع إلى أمثاله الشعبية. مثل يقول:

"العين بصيرة، والإيد قصيرة"

وهذا ليس فقط عن الفقر... بل عن التعلّق، عن الحنين، عن الأشياء التي نراها أمامنا ولا نملكها... كالوطن أحيانًا.

سوريا، باختصار، بلد لا يمكن أن تمرّ به مرور العابر... بل بلدٌ يُخزّن فيك شيئًا دون أن تدري. تخرج منه محمّلًا، ليس بالصور... بل

بالصوت، والريح، وشيء من الحزن النبيل، الذي يجعلك تُدرك كم يمكن للألم أن يكون ناعمًا حين يُحكى بلغةٍ صادقة.

وكنت أظن أنني خرجت من سوريا بدمعة فقط، حتى اكتشفت أنها تركت في داخلي شيئًا لا يُقال... بل يُترجم حين تطأ قدماك أرضًا تشبهها في الحنين: الأردن.

بلدٌ لا يعلو صوته، لكنه يعرف كيف يترك أثراً. فيه من الهدوء ما يربك، ومن الكرامة ما يُلزمك بالاحترام، ومن البساطة ما يجعل كل شيء يبدو أصدق مما هو عليه.

في عمّان، المدينة التي تتكئ على سبعة جبال كما لو أنها تنظر من علٍ إلى نفسها، تبدأ الحكاية بصوت خافت، ثم ترتفع تدريجيًا كلما توغلت في الأزقة. لا ضجيج بلا سبب، ولا زينة بلا جذور. هنا، القهوة تُقدَّم بماء الورد أحيانًا، لا للاستعراض، بل لأن العادة تقول: الطعم الطيب لا يكفي، لا بد أن يُشمّ أيضًا.

الناس في الأردن لا يُبالغون في الترحيب، ولا يطيلون الكلام، لكنهم يُتقنون المعنى. حين يقول لك أحدهم: "اعتبر البيت بيتك"، فهو لا

يقولها كناية. قد يعطيك مفتاحه فعلًا. الكرم هنا لا يُبشَّر به... بل يُمارَس.

ويُقال في أمثالهم:

"الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق."

ليس مثلًا يُعلَّق على الحائط، بل يُطبَّق في الأسواق، في البيوت، وفي الطرقات الجبلية.

في البادية، حيث الصحراء ترسم أفقًا بلا نهاية، ترى البدو يجلسون إلى النار كما يجلس الحكماء إلى ذاكرة الأرض. لا يستعجلون شيئًا، حتى الشاي. يُغلى على مهل، ويُسكب كأن كل قطرة منه رسالة. وإذا كنت ضيفًا، فلك الأولوية دائمًا: في الطعام، في الراحة، وحتى في الحكاية الأولى التي تُروى تلك الليلة.

في الجنوب، تسكن البتراء، ليست مدينة... بل نَفَس وردي في قلب الجبل. تمشي فيها كأنك تمشي داخل قصيدة حجرية، لا تُكتب، بل تُقرأ من الصخر. لا أحد يعلو فيها على الزمن، بل يتعلّم منه. حتى السياح –

رغم عدساتهم – يخفضون أصواتهم، كأنهم في حضرة حكمة قديمة لا يجب إزعاجها.

أما في المدن الصغيرة، فهناك حياة أخرى. الأطفال يلعبون الكرة في الأزقة، البنات يقطفن النعنع من الحدائق، والنساء يجلسن أمام البيوت يُقشّرن البامية ويتبادلن أخبارًا لا تحتاج إلى هو اتف.

يُقال إن الوقت في الأردن لا يُقاس بالساعات، بل بالمو اقف.

وفي المناسبات، لا فرق بين فرح أو حزن... البيت يمتلئ، والقلوب تنفتح. في الأعراس، تُضرب الدفوف، وتُغنّى الأهازيج القديمة، لا تخرج من آلات صوت، بل من صدور الجدّات. وفي الجنازات، يُحمَل الراحل إلى المقبرة بين الأصدقاء والجيران، لا لأنهم يؤدّون واجبًا... بل لأنهم يعتبرونه فردًا منهم حتى النهاية.

الحب في الأردن هادئ. لا يُعلَن في الساحات، لكنه يظهر في تصرّف بسيط: انتظار طويل دون شكوى، نظرة تحمل أكثر مما تقول، وخوفٌ حقيقي من أن يصيب الآخر أي أذى. لا يُقال "أحبك" كثيرًا... لكنّ الأفعال هنا لا تترك مجالًا للشك.

في الأردن، لا تحتاج إلى كثير من الوقت لتشعر بالانتماء... يكفيك أن تجلس مع أحدهم على صحن "منسف"، وتسمع منه قصة عن جدّه، أو موقف في الجيش، أو ذكرى من رحلة حج قديمة.

بلد صغير على الخريطة... كبير جدًا في القلب.

ما إن غادرت الأردن، حتى شعرت أنني لا أتحرّك جغرافيًا بقدر ما أتحرك بين أعماق التاريخ. فكل خطوة تقودني شرقًا كانت تُقرّبني من موطن القصص الأولى، من بلادٍ لم تُكتَب على الخارطة فحسب، بل حُفرت في الذاكرة الإنسانية... العراق.

العراق ليس مجرد دولة، بل طبقات من الزمن، كأنك تمشي فوق أرشيف حيّ. بغداد ليست مدينة عادية، بل فكرة، صُوّرت في الكتب، وتناقلتها القصائد، وتحوّلت إلى أسطورة ثقافية قبل أن تصبح عاصمة. من شارع المتنبي حيث تباع الكتب كما تباع الخبز، إلى نهر دجلة الذي لا يجري بالماء فقط، بل بالصور والأصوات والذكريات... كل ركن فيها يروي حكاية.

الناس هناك لا يتحدثون بلهجتهم فحسب، بل بنبرة تعب فيها الحنين والتحدي. في البيوت، صوت الأم وهي تحضّر "التمن والمرق" يشبه

نشيدًا يوميًّا. لا يُكتَب في دفاتر الشعر، لكنه يسكن دفاتر القلوب. وفي الجلسات، لا تكتمل السهرة دون استرجاع نكتة عن الزمن الجميل، أو مقطع من أغنية لكاظم، أو بيت شعر من السيّاب، وكأن الثقافة ليست شيئًا يُقرأ، بل يُعاش.

الضيافة في العراق ليست واجبًا، بل فخر. الزائر يُعامل كأنه من العائلة، وقد يُحرج من كثرة الدعوات إلى الطعام، أو محاولات الكرم التي لا تنتهي. يُقال مثلًا: "الضيف ضيف الله"، وهي جملة لا تُقال فقط، بل تُترجَم إلى أفعال، إلى صواني ممتلئة، وأكواب شاي لا تنفد، وسهرات لا تنتهي حتى ينام الجميع مرتاحين.

في الأرياف، كل شيء يبدو كأنه توقّف ليلتقط أنفاسه. هناك، الحقول تتحدث، والنخيل يكتب تاريخه بلغة الظلال، والخبز يُخبز على نار الحطب في تنور طيني لا تغيّره التكنولوجيا. الجدة تحكي القصص للأطفال، لا من كتب، بل من الذاكرة. وكأن الحكاية هناك لا تُتعلَّم، بل تُورَّث.

وفي الأعراس، لا تبدأ الزغاريد بالموسيقى، بل بصوت داخلي يُعلن أن الفرح يجب أن يُحتفى به رغم كل شيء. يرقص الناس على أنغام

"الهيوه" و"الدبكة العراقية"، وتُحمل العروس كأنها هدية لا تُقدَّم فقط للعريس، بل للقبيلة، للعائلة، للمستقبل. لا أحد يقف على الهامش، الكل يشارك، لأن الفرح، كالحزن، لا يُعاش فرديًا.

أما في لحظات الوداع، فلا تُقال الكلمات كثيرًا، لأن الحزن في العراق ليس شيئًا يُشرح. الموت هناك لا يُعلن فقط، بل يُحسّ. تُفرش الساحات بالسواد، وتُعلَّق صور الراحلين على الجدران، وتُقرأ الفاتحة في كل مكان. لكن مع كل هذا، لا يُقتل الأمل. فالعراقي، بطبيعته، ينفض الغبار عن قلبه كل صباح، ويقول: "بعدها الحياة بخير."

وإن سألت عن الحب، فهو لا يُخفى. قد لا يُقال دومًا في العلن، لكنه يُكتب على الجدران، يُغنّى في الأزقة، يُعبَّر عنه عبر النظرات. المراهق يكتب اسم حبيبته على دفتر المدرسة، والكهل يحتفظ برسالة قديمة في محفظته. الحب هناك له نكهة تراب دجلة، وله صوت أم كلثوم، وله سيرة تُقال على مهل، كما لو كانت سحرًا.

في العراق، العادة ليست قالبًا تُكرَّر فيه الأفعال، بل روحٌ تُغذّي الطريقة التي يُعاش بها اليوم. قد تتغير السياسة، وقد تتبدل الأحوال، لكن العادة تبقى، تحفظ للناس ملامحهم، وتُذكّرهم بمن يكونون.

خرجت من العراق وكأني لم أخرج... لأن بعض البلاد لا تُغادر الجسد حين تغادرها، بل تستقر داخلك، وتصبح جزءًا من نبرتك، ومن طريقة سلامك، ومن حنينك حين تجلس وحدك.

...ومع آخر صفحة من العراق، لم أشعر أنني أتركه وراء ظهري، بل كأنني أحمل أثره معي و أنا أقترب من بلدٍ آخر بلد عيني تشتاق لرؤيتها وقلبي ينبض بحبها ... السعودية.

هناك، لا تكتشف الأرض فقط، بل تُفاجأ بالسماء أيضًا.

بلد يجمع بين الأفق المفتوح والقبلة التي يتجه إليها قلوب ملايين الناس. من مكة التي تحتضن الكعبة وتجمع العالم كل عام، إلى المدينة التي يحنّ إليها كل من عرف الرحمة في سيرة نبيها، إلى الرياض حيث الحداثة ترتفع فوق الرمال بثبات، وصولًا إلى القرى الصغيرة التي ما زالت تحكي الحكاية كما كانت: ببساطة، وكرم، وشهامة لا تنتظر مناسبة.

في السعودية، لا يُقاس المكان بحجمه، بل بما يحمله من معنى. الكعبة ليست مجرد بناء، بل قلب، يدور حوله كل شيء. والحج ليس طقسًا فقط، بل ترجمة عملية للذوبان في جماعة، حيث يلبس الجميع الثوب ذاته، وينطقون بالدعاء ذاته، ويمشون نفس الدرب، وكأن الأرض كلها

تصير روحًا واحدة. وفي مواسم العمرة، يفتح الليل أبوابه للطائفين، فلا أحد ينام لأن القلوب مستيقظة، تغسل التعب بماء زمزم، وتتنفّس من خشوع اللحظة أكثر مما تتنفّس من الهواء.

لكن السعودية لا تُختزل في مكّة والمدينة. هناك مدن تكتب فصولًا أخرى من الحكاية. في نجد، وسط البلاد، تقف الرياض بثقة المدن الجديدة، تخطو بثبات نحو المستقبل، دون أن تنسى جذورها. القصائد ما زالت تُقرأ في الدواوين، لكن بجوارها تُبنى الجامعات والمشاريع، ويُدار الحديث عن الذكاء الصناعي كما يُدار عن القهوة العربية. التقاليد لم تُهمل، بل تحوّلت إلى خلفية راقية لمشهدٍ حضريّ متسارع. المجالس ما زالت تُفتح للزائر، والأطفال ما زالوا يُربّون على قول "مرحبا مليون"، وهي ليست مجرد تحية، بل عقد شرف بالضيافة.

أما في الجنوب، في عسير وجازان، فالأرض تنقلب مفاجأة. الخُضرة تكسو الجبال، والبيوت تُزيَّن بالرسوم والزخارف الشعبية، والناس يتحدثون بلهجة رخيمة، فيها دفء لا يُترجم. الأعراس هنا لا تُقام في قاعات فخمة، بل في الساحات، والرقصات ليست استعراضًا، بل إعلان فرح جماعي، يبدأ بدفّ ويتحوّل إلى نشيد من الأقدام. حتى في

الحزن، يبقون جماعة، لا أحد يُترك وحده، لا في عزاء، ولا في غربة، ولا في كِبر.

وفي الشمال، في تبوك وحائل، يكون الشتاء سيد الحكاية. النار لا تُشعل للتدفئة فقط، بل لتجميع القلوب. المجالس تُنصب في العراء، والقهوة تُصبّ بيدٍ ثابتة، لا تُسرع، لأن التقديم نفسه عادة لا يجوز الاستعجال فيها. الراوي هناك لا يُقاطع، بل يُنصت له وكأنه يقرأ من كتاب أُودِعَت فيه أسرار القبيلة.

أما الحِجاز، فهو لوحة ألوان، فيه جدة، المدينة التي لا تهدأ، والتي يختلط فيها الزمن بالحياة. الشوارع تفيض بالحركة، والأسواق تفيض بالقصص. في "باب مكة" و"سوق البلد"، ترى العُطور، والتوابل، والعبايات، والحكايات. وفي "البلد القديم"، تسمع كل اللغات وتشمّ كل مطبخ. الجالية الهندية، السودانية، اليمنية، وغيرها، كلها تركت أثرها في الروائح، في الأطباق، في النكهات... لكنّ روح جدة تظلّ واحدة: مدينة لا تطرد أحدًا، بل تحتضن.

في السعودية، العادة لا تُقال... بل تُمارس في التفاصيل الصغيرة: في طريقة تقديم التمر، في عدد رشفات القهوة، في توزيع المجالس، وفي

توقيت المزاح. السعوديون لا يشرحون عاداتهم كثيرًا، لكنك تتعلّمها فقط إذا عشت بينهم. مثلهم الشعبي يقول: "اللي ما يعرفك ما يثمنك"... أي أن الفهم لا يأتي من بعيد، بل من القرب، من العِشرة، من أن تكون جزءًا، لا متفرّجًا.

وفي النهاية، لا تغادر السعودية بسهولة. هي من البلاد التي لا تُفصح عن كل أسرارها من اللقاء الأول. تحتاج أن تمكث، أن تصمت أحيانًا، أن تشرب قهوتها ببطء، أن تمشي في سوقها القديم دون هاتف، أن تستمع لأغنية قديمة في سيارة تاكسي، أن تصغي لقصة رجل طاعن في السنّ يحكي عن موسم المطر كما لو كان يحكي عن معجزة.

هكذا فقط، تعرف السعودية... لا من الصور، بل من العيش فيها، أو في الحلم بها.

.ومن دفء المجالس السعودية، وكرم القهوة الممدودة بلا سؤال، كانت الرحلة التالية لا تحتاج إلى بوصلات كثيرة. لأنها ببساطة... تتبع الرائحة رائحة البنّ المُحمّص بالهال، وأغنية قديمة تتصاعد من راديو مهترئ على ناصية الطريق، وأصوات نساء يخبزن الخمير على الصاج وكأنهن يُحضّرن وصية الأمهات: اليمن.

اليمن ليست بلدًا يُوصف بسهولة. إنها ذاكرة تسير على قدمين. كلّ ما فيها يشبه شيئًا قرأته في كتاب قديم... أو سمعته من جدّتك ولم تصدّقه حينها.

في صنعاء، البيوت تطلّ من نوافذها المزخرفة كأنها ترقب التاريخ لا الناس. "الروشان" الخشبي يظلّل الغرف من الشمس، ويزيّن الواجهة بأناقة بدائية فيها فن لا يُدرّس، بل يُورّث. الأزقة ضيّقة، لكنها لا تخنق... بل تدلّك على الوجهة، لأن المدن القديمة لا تُضللك، حتى لو لم تحمل خريطة والناس... كأنهم قطعة من الأرض، لا يتصنّعون، ولا يستعجلون. في الأسواق، لا تشتري فقط، بل تُنصت، وتُمازح، وتشارك البائع في رشّ الماء أمام بسطته لأنه "يجلِب البركة". الوجوه فيها تعب، نعم... لكن فيها كبرياء من نوع خاص، كبرياء لا يعلو الصوت من أجله، بل يظهر في الحضور، في الثبات، في الصبر.

وفي الجبال، حيث القرى تتعلّق بالحواف كأنها تخشى السقوط لكنها لا تفعل، يكون للزراعة معنى آخر. البنّ اليمني لا يُروى بالماء فقط، بل بالأغاني. يقولون إن الفلاحين هناك يغنون لشجرتهم كما يُغنّى لطفلٍ

صغير، وإن البُنّ لا ينضج وحده... بل على نغمة "يا زارعين البن في العالي".

أما الأعراس، فتبدأ صباحًا ولا تنتهي إلا إذا تعب الجسد ورضي القلب. لا يحتاجون إلى أضواء مبهرة، ولا إلى قاعات فخمة. يكفي ساحة ترابية، ودفّ، ورقصة "البرع"، حيث يحمل الرجال خناجرهم المزينة ويهزون أكتافهم بإيقاع يشبه استعراض القوة... والفرح معًا.

وفي الحزن، هناك صمت لا يُقال الكثير، لكنّ النساء يرتدين السواد دون مبالغة، ويقدّمن الطعام للجيران قبل أنفسهن، ويُعاد ترتيب المقاعد لتكون في مواجهة الباب... حتى يدخل من يأتي بالتعزية ويشعر أنه أتى إلى بيته.

العادة هناك لا تحتاج إلى شرح، ولا إلى تبرير. في مثلهم الشعبي يقولون: "من فات قديمه تاه."

وما إن تعيش في اليمن أيامًا قليلة، حتى تفهم هذا المثل جيدًا... لأن كل قديمهم ما زال حيًا، وكل ما تظنّه تراثًا، هو ببساطة: الحياة اليومية.

في اليمن، لا يُؤخذ الزمن كخصم، بل كرفيق. الأيام تمضي على مهل، كأنها لا تُقاس بالساعات بل بالأحاديث. جلسات "القات" التي تبدأ بعد الظهر لا يُحدّد لها موعد انتهاء. لكنها ليست فقط مضغًا لنبتة خضراء، بل طقس اجتماعي مكتمل. يجلس الناس على الحصر، يتكئون على الجدران، وتدور الأحاديث من الحكاية العائلية إلى السياسة، ومن الشعر الشعبي إلى أطراف الحكمة القديمة. أحدهم يروي قصة، وآخر يردّ بمثل، وثالث يضحك وهو يضيف: "إذا فاتك الضحك... شل لك قصة!" هكذا تُدار المجالس: بمرح، وببطء، وبذكاء الحياة.

ولأن اليمنيّ لا يعيش فقط في بيته بل في بلده كله، تجد كل مكان مأهولًا بالانتماء. في القرى الجبلية، لا تمرّ بجدارٍ دون أن ترى عليه آثار الزمن: كسر في الحجر، أثر لماء، أو زهرة نبتت فجأة في شق صغير. هذه ليست مجرد تفاصيل... إنها رسائل. الجبال هناك لا تخيف الناس، بل تحميهم، وتعلّمهم معنى التحدي. أن تبني بيتًا على منحدر حاد يعني أنك تعلّمت أن لا تنتظر الأرض لتُفرش لك. أن تزرع البنّ في صخرة، وترويه بنداءٍ صباحي، يعني أنك لا تزرع فقط... بل تراهن على الحياة.

ثم هناك الأسواق... عالم آخر بالكامل. سوق "التحف" في صنعاء القديمة، وسوق "الملابس" في تعز، وسوق السمك في الحديدة... كلها ليست أسواق بيع وشراء فقط، بل ساحات لقاء. ترى الرجل يساوم على عباءة، لكنه لا يخرج قبل أن يسأل البائع عن أولاده. وتسمع التاجر العجوز يقول: "هذه مش بضاعة... هذه عشرة سنين من السمعة." حتى في المساومة، لا يغيب الأدب، بل هو الأساس.

أما البيوت، فهي لا تستعرض نفسها من الخارج، لكنها تحتفظ بالدهشة في الداخل. كل بيت يمنيّ فيه ركنٌ للشاي، وركن للضيافة، وركن للمجالس، وركن يُسمّى ببساطة: "للأهل". والنقشات على الجدران، والزخارف على النوافذ، والمصابيح المعلقة من السقف، كلها لا تأتي من دليل تصميم... بل من قلب يعرف الجمال دون أن يتعلّمه.

في الأعراس، لا تُستأجر قاعة، بل يُستعار الحيّ كله. الجيران يعرفون متى يُدقّ الطبل، ومتى تُحضر الذبائح، ومتى تُفرش الساحة. النساء يبدأن التجهيز من الفجر، ويُشاركن حتى في زفّة العروس. والزفّة هنا ليست دخولًا صامتًا، بل هتاف وضحك وزغاريد تختلط بصوت الدفّ، فيصير الفرح أكبر من أن يُحتوى.

والحزن... له مكانته أيضًا. لا يُهمل، ولا يُستعجل تجاوزه. في بيت العزاء، ترى الرجال يجلسون بهدوء، كل منهم يُسلّم ويجلس دون حاجة للكلمات. يكفي وجوده. والنساء يطبخن كأنهن يُخففن عن القلب بالمِلعقة. لا يقال للمصاب: "اصبر"، بل يُقال له: "نحن هنا."

وهكذا، حين تخرج من اليمن، لا تُغادرها. لأنك لن تغادر شيئًا يسكنك. ستبقى معك صورة الخنجر الفضيّ في الخاصرة، وصوت البائع وهو يرش الماء أمام بسطته، وعبارة العجوز في السوق وهو يقول: "لا تشتري بالعين... اسأل عن الأصل."

اليمن لا تُودَّع. إنها تنطبع فيك... وتبقى.

وما إن طويت صفحات اليمن في الذاكرة، حتى بدا لي أن الرحلة لا يمكن أن تنتهي على ذلك الجبل العالي... لا بد أن تنزل قليلًا، لا إلى ما هو أقل، بل إلى ما هو أكثر هدوءًا و اتزانًا فهناك، على الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة، تفتح سلطنة عُمان ذراعيها للعابرين لا بالنداء... بل بالصبر. بلد لا يُلاحقك بالبهرجة، بل ينتظر أن تصل إليه كما يصل الطيب إلى الأنف: بهدوء، وعمق، وصدق.

في عُمان، أول ما يصافحك ليس المنظر... بل المزاج. مزاج الناس الذين يشبهون البلاد: رصانة، تهذيب، ودفء لا يُقال، بل يُشعر. لا أحد يصرخ في السوق، ولا أحد يتجاوزك في الطابور، ولا أحد ينظر إليك نظرة فضول. أهلها من أكثر الشعوب التي قابلت فيها نُبلًا داخليًا لا يستعرض نفسه... لكنه واضح كالشمس. لا يُقاطعونك حين تتحدث، ولا ينسحبون حين تُخطئ... بل ير افقونك بنوع نادر من الصبر والكرم.

مدينة مثل مسقط لا تصرخ بتاريخها، بل تهمس به. القلاع الحجرية هناك لا تُضيء ليلاً بعنف كما في أماكن أخرى، لكنها تقف، صامتة، قوية، تر اقب البحر وتعرف أنه جاءها قديمًا من كل الجهات. في الأسواق القديمة، ترى البخور يُشعل لا للزينة... بل لأنه جزء من التنفس. العطور هنا لا تُباع بزجاجات فاخرة، بل تُركَن على رفوف خشبية قديمة، يُسكب منها شيء قليل على راحة اليد... ثم يُشم، ويُغمض المشتري عينيه، وكأنه يعود إلى ذاكرة لا يعرف أنه يملكها.

أما نزوى، فهي حكاية كاملة. المدينة التي كانت يومًا عاصمة العلم، ما زالت تُعامِل القلم باحترام. حتى في سوقها، تسمع أحاديث لا تنفصل عن الحكمة: "لا تغلق الباب على وجه الضيف، ولو لم يكن عندك غير

الماء"، يقولها بائع السعف العجوز وهو يُقدّم لك تمرة مغطاة بالسمسم. في نزوى، الجوامع لا ترفع صوتها كثيرًا، لكنها ترفع القلوب، ووجوه الناس فيها لا تحاول أن تُقنعك بشيء... لكنها تُشعرك بأنك أمام شيء حقيقي، نقيّ، وكامل.

صلالة، على الطرف الآخر، لا تُشبه أي مكان. حين تُزهِر الأشجار في فصل الخريف، وتُنبت الأرض من لا شيء، تُدرك أن الطبيعة هنا تتآمر لصالح الجمال. المطر لا يزعج، بل يُغني الخلفية، والضباب لا يُقلق، بل يحتضن الطريق. حتى الجمال هناك لا يُسرَّح للزينة، بل يمشي بخيلاء من يعرف أن الأرض له.

والناس... في الجنوب، كما في الشمال، يمتلكون أسلوبًا لا يمكن تدريسه في مدارس البروتوكول: الكرم المهذب. لا يُلحّون في الدعوة، لكنهم لا يدعونك تمضي دون ضيافة. يقدمون القهوة الصغيرة، يتبعونها بتمر، ثم ببساطة يقولون: "يا حيّاك". وهذه العبارة وحدها تكفي. لأنك تفهم من نغمتها أنهم لا يرددونها كعادة... بل كنية حقيقية عن القلب.

في الأفراح، العُماني لا يضرب الأرض برِجله... بل يهزّ عصاه كما يهزّ التاريخ رأسه طربًا. في رقصة "الرزحة"، يقف الرجال صفًا واحدًا، لا

يبالغون، لا يتمايلون، بل يضربون الأرض بخفة مدروسة، تعبيرًا عن احترامهم لما بين أيديهم: الفرح. والنساء، في زينتهن العفوية، لا يلبسن الفضيّ للعرض، بل لأنه موروث، وتاريخ، وفخر. العرس هناك لا يبدأ بالرقص، بل بالترحيب، ولا يُختَتم بالعشاء، بل بالدعاء.

أما الحزن، فهو عند العمانيين ليس مناسبة للانغلاق... بل للتجمّع. العزاء لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تتبدّل فيه الألوان، لكن فيه نوع من التصالح العميق مع ما لا يُمكن دفعه. الوجوه حزينة، نعم، لكنك ترى في العيون طمأنينة تُربكك: كأنهم يعرفون أن الغائب لم يبتعد... فقط أخذ طريقًا آخر.

ومن الأمثال الشعبية التي سمعتها هناك، ما يُقال بهدوء العارفين: "الهرولة ما توصل بلد، والتأني ما يخلّي سفر". وكأنهم يُخبرونك أن العجلة لا تصنع المعنى، وأن السرعة لا توصلك دائمًا. هذا المثل يُلخّص الروح العُمانية: لا استعجال، لا ضجيج، لكن الوصول مؤكد... والمقام، حين يكون، يليق بمن حضر.

في عُمان، تشعر أن الأرض لا تريد منك شيئًا... سوى أن تُنصت.

وإن كنت تظن أنك رأيت كل ما في عُمان من دهشة، فانتظر حتى تخرج من المدن الكبرى، وتمشي في دروب الجبال، حيث الناس لا يبدون كأنهم يعيشون في الماضي... بل كأن الماضي ما زال يعيش فيهم. في قرى مثل الجبل الأخضر وبهلاء، لا تقيس الوقت بالساعات، بل برائحة الخبز حين يكتمل، وبرجفة الضوء على الحجارة القديمة. البيوت هناك مبنية من الطين، لكنها ثابتة كأنها خُلقت من صخور الجبال نفسها. والرجال يجلسون على عتبات الأبواب، لا يتحدثون كثيرًا، لكنهم يحيّون كل مارّ بنظرة فيها كل الكلام.

في تلك القرى، ترى النساء وهن يطرزن بخيوط ملونة لا تُباع في الأسواق، بل تُستخرج من صبر السنين، وتُنقش على القماش كما تُنقش القصائد. الألوان ليست للزينة فحسب، بل لكل منها دلالة. الأصفر للفرح، والأحمر للقوة، والأزرق للسلام الداخلي. ما من ثوب يُرتدى دون حكاية، وما من زينة توضع بلا سبب.

وإذا حضرت "السبلة" – تلك المجالس التي لا يعلو فيها صوت على صوت الحكمة – ستفهم كيف تُدار الحياة في عُمان. لا شيء يُقرَّر بعجلة، وكل رأي يُؤخذ على محمل الجدية، حتى لو جاء من شاب في أول

عمره. الرجال هناك لا يتباهون بعدد كلماتهم، بل بوزنها. وفي كل مجلس، تجد شيخًا لا يُفرَض، بل يُحتَرم، لا لأنه الأعلى صوتًا... بل لأنه الأعمق صمتًا.

وعُمان لا تكتفي بثقافتها العربية، بل تحمل في قلبها بُعدًا أفريقيًا وشرقيًا عميقًا، نتيجة قرون من التبادل مع زنجبار، والهند، وسواحل المحيط. هذا يظهر في الطعام، في الموسيقى، وفي ملامح بعض الوجوه. التوابل هنا ليست مجرد نكهة، بل جسر. والوجبات تُطهى وكأنها نصوص أدبية. من "القبولي" إلى "الهريس"، لكل طبق موسمه، ولكل موسم طقسه، ولكل طقس احترامه.

وفي سواحل صوروصيرة، يروي البحر قصصًا أخرى. الصيادون هناك لا يصرخون في البحر، بل يُنادونه كمن يُنادي حبيبًا قديمًا. المراكب – أو "السنابيك" – ما زالت تُبنى يدويًا، وما زالت تطفو بفخر على الموج، كما لو أن الخشب يتذكر رحلات الأجداد نحو المجهول. الطفل في عُمان لا يُعلَّم السباحة فقط... بل يُعلَّم احترام البحر، لأنه مصدر الرزق، وحافظ الأسرار، ومرآة السماء.

وإن تأملت في ملامح الشيوخ هناك، لا ترى تعب السنين فقط... بل ترى طمأنينة من فهم الحياة جيدًا. وفي حديثهم، تتكرّر كلمة: "الحكمة". لأنهم يعتبرون أن العُمر ليس ما مضى من أيام، بل ما تمكّنت من فهمه فيها.

في سلطنة عُمان، كل شيء يطلب منك شيئًا واحدًا فقط: أن تتأنّى. لأن السرعة هنا تُفوّت عليك ما لا يُعوَّض. التقاليد ليست عبئًا، بل جدارًا تستند إليه والتاريخ ليس مجرد ماضٍ، بل ظلٌّ يُر افقك دون أن تراه.

وإذا غادرتها يومًا، فلن تتذكر صورها فحسب... بل ستشتاق إلى صوتها الخافت، إلى ريحها التي تمرّ بلطف، وإلى أناس لا يودّعونك بكلام كثير، بل بعبارة واحدة تكفي: "في أمان الله".

ومن سكينة عُمان، ومن نَفَسها الطويل الهادئ، شعرت أن الرحلة العربية لم تكن فقط انتقالًا بين الجهات، بل عبورًا بين طبائع النفوس. وهكذا وجدت نفسي أتابع الطريق نحو الغرب، لا أبحث عن بلد جديد، بل عن امتداد آخر لنفس الحكاية... امتداد اسمه: الجز ائر.

الجز ائر ليست بلدًا يتحدث عن نفسه بسهولة، بل بلد يُشبه الجبل... لا يمنحك جماله من أول مرة، بل حين تصعد وتتنفس جيدًا. في

العاصمة، ترى البحر يغازل الأرصفة، وترى المباني البيضاء تتراصّ مثل جنود تعبوا من الحرب، لكنهم ما زالوا و اقفين. كل حجر فيها فيه قصة استعمار، وكل شارع فيه بقايا صمود. ولهذا، تجد الناس في الجزائر لا يتحدثون كثيرًا عن الماضي... لكنك تراه في أعينهم. الحنين هناك لا يُقال، بل يُعاش بصمت، في صوت أم كلثوم من مقهى قديم، وفي دعاء الجدّة حين تضع الشاي على النار.

في الجزائر، لا يُقاس الكرم بعدد الصحون، بل بعدد الدعوات التي تُقال لك و أنت تدخل البيت. "مرحبا بيك، الدار دارك" ليست مجرّد عبارة، بل إعلان نية: أنك من اللحظة الأولى، لست غريبًا. في الأحياء الشعبية، تجلس النساء على العتبات، ينظفن الخضار ويحكين قصصًا نصفها و اقعي، ونصفها أسطورة، لكنك تصدق الجميع... لأن النبرة صادقة.

وفي الجبال، مثل "الأوراس" و"القبائل"، تحضر العادات كأنها جدار منيع ضد الزمن. العرس هناك لا يُقام فقط بين شخصين، بل بين عائلتين، بين قريتين أحيانًا. الزغاريد لا تنتهي، والحناء تُرسم على الأيادي كأنها توقيع على عهد جديد. يُقال في مثلهم: "اللي ما عندوش

عادة، ما عندوش هوية"، ولهذا يتمسكون بها كما يتمسك البحر بصخره.

الطعام الجزائري... هو فصلٌ آخر من الحكاية. الكسكس هناك ليس فقط طعامًا، بل طقسًا أسبوعيًا يجمع العائلة. ولا يُطبخ إلا بهدوء، وصبر، وحب. "الشخشوخة"، "الرشتة"، "الطاجين"، كلها وجبات تعني شيئًا: اجتماع، دفء، احترام للتفاصيل. وحتى الشاي، يُقدَّم بثلاثة أدوار: الأول مُرّكالحياة، الثاني حلوكالحب، والثالث ناعم كالموت... كما يقول مثلهم الشعبي.

أما في المناسبات الحزينة، فلا مكان للمبالغة. البكاء ليس بصوت عالٍ، لكن الحضور دائم. الجيران يتشاركون في كل شيء: الخبز، الماء، والدعاء. في الجزائر، لا يُترك أحد وحده، لا في الفرح ولا في الفقد. لأن الناس هناك، مثل ترابهم... يعرفون معنى الصمود الجماعي.

وحين يحين وقت الغناء، يخرج من الأعماق. "الراي" ليس موسيقى فقط، بل نبض داخلي يعبّر عن الحب، والخذلان، والنجاة. لا يُغنى ليُسمع فقط، بل ليُفهم.

وهكذا، من أحياء العاصمة إلى قُرى الجنوب، ومن لهجة الشاوية إلى دفء الطوارق، تحمل الجزائر في كل زاوية منها سببًا يجعلك تتوقف... لا لتُعجب، بل لتتأمل.

بعد أن حملت معي من الجزائر دفئها، وتنوعها، وذاك المزيج العجيب بين الجبال والبحر والصحراء... لم أكن أبتعد كثيرًا، بل كنت أواصل السير على نفس الخيط الثقافي، حتى وصلت إلى المغرب

المغرب لا يُقابلك بالصوت العالي، بل بالسحر البطيء. مدينة مثل فاس لا تُقال مرة واحدة... بل تُكتَب على مراحل. الأزقة هناك لا تقودك فقط إلى السوق، بل تقودك إلى التاريخ. كل باب خشبي منقوش، كل نافذة حديدية ملتفّة مثل قصيدة، كل قنطرة حجرية فوق ممر ضيق... وكأنك تمشي في متحف حيّ، لا جدرانه ثابتة، ولا معروضاته جامدة.

في مراكش، لا تُحسب الساعات، بل تُعاش. ساحة "جامع الفنا" ليست ساحة فقط... بل قلب مفتوح ينبض بالحكواتي، والراقص، وبائع الحلزون، والمغني الذي يُنشد بأكثر من لهجة في وقت واحد. هناك، لا أحد ينتظر شيئًا محددًا، لكن الجميع يعرف أنه سيخرج من الساحة بشيء لا يُنسى.

وإذا كنت تبحث عن الجمال الصامت، فعليك بالصويرة أو شفشاون. الألوان هناك ليست للتجميل، بل للبوح. الجدران الزرقاء لا تذكّرك بالبحر فقط، بل بالسكينة. وحتى الريح... لا تزعج، بل تنقّي.

المطبخ المغربي، هو الآخر، لا يُختصر. الطاجين لا يُطهى بسرعة، بل يُنتظر. الكسكس يُرش عليه الزبيب كما يُرشّ الفرح على يوم الجمعة. والشاي؟ يُحضّر كما يُكتب الشعر: نار هادئة، نعناع طازج، وسكب مرتفع كي يعلو الرغوة ويُنزل السلام.

العائلة هناك ركيزة. "الدار الكبيرة" لا تُغلق أبوابها إلا آخر الليل، والجدّة لا تنام قبل أن تطمئن على الجميع. في مثلهم الشعبي يقولون: "اللي ما عندو كبير، يشريلو كبير." لأن الكبار هناك ليسوا فقط للتقدير... بل هم بوصلة البيت.

حتى في الفقد، الحزن لا يُعلن، بل يُعاش في التفاصيل. ثوب أسود بسيط، سكون في الزوايا، آيات تُتلى دون توقّف، وصينية شاي تبقى عامرة للزائرين. فالفقد هناك ليس لحظة... بل موسم من التأمل.

وفي الحب، لا تُقال الكلمات بسرعة. بل تترك للعين أن تلمّح، وللأغنية أن توصل الرسالة، وللطاجين أن يُقدَّم بحب كأنه وردة مطبوخة على نار الحياء.

المغرب بلد لا يعرّف نفسه بجملة واحدة... بل يتركك تمشي، وتضيع، وتستدلّ عليه بحواسك كلها. بلد يعرف كيف يُخبّئ الأسرار في أبسط التفاصيل، وكيف يجعلك تتأخر عن العودة، دون أن تشعر أنك غادرت.

وهكذا، من الأطلس إلى الأطلسي، ومن الحرير إلى الطين، يختم المغرب فصلًا طويلًا من الحكاية... حكاية العالم العربي، كما يُروى حين يكون التراب لغة، والضيافة دين، والهوية وشمًا لا يزول.

...وغادرت المغرب، لا كما يُغادر السائح مدينة، بل كما تُغادر نغمةٌ مقامَها لتبدأ مقامًا آخر... قريبًا، لكنه مختلف.

لم أصل تونس... بل كأنها وصلتني. دون أن أدرِ، كانت تسكن في ذاكرة الصور الأولى: البحر الذي يلامس المدن، أبواب البيوت الزرقاء، والنقش الأندلسي على الجدران. لا تُشبه تونس أحدًا، لكنها تُذكّرك بالجميع. فيها شيء من دفء المشرق، ونكهة من أناقة أوروبا، ولمسة من طيبة

أفريقيا. بلد يقف عند مفترق العوالم، لكنه يبتسم وكأنه يعرف طريقه وحده.

في تونس، الحياة لا تُصنَع بصوت مرتفع... بل تُنسَج برفق. في أسواق المدينة العتيقة، الحرفيون يعملون بأيدٍ هادئة، كأن الوقت لا يُلاحقهم، وكأن العالم بأسره يمكن أن ينتظرهم حتى ينتهوا من نقش قطعة فخار، أو من تطريز حافة منديل. كل شيء في السوق يحكي، من العطور التي تختلط روائحها بلا خجل، إلى الأصوات التي تتفاوت بين دعوة للبيع وسؤال عن حال العائلة.

والناس؟ فيهم بساطة لا تخلو من الحياء، وذكاء لا يخلو من الدعابة. التونسي لا يقول جملة بلا نغمة، ولا يضحك من قلبه إلا وهو يقصد أن يُفرِح غيره. هناك مثل شعبي يقول: "اللّي ما يعرفك يجهلك"، وكأنهم يعلنون: لا تحكم علينا من بعيد، اقترب وافهم، وستعرف من نحن.

في المقاهي، حيث الرجال يلعبون الورق أو يتجادلون في السياسة، تُقدَّم القهوة برغوتها الثقيلة، وتُترَك الكراسي شبه فارغة لأن الجلسة قد تطول، وقد يأتي صديق دون موعد. أما الشاي، فبنَعنَع، له نكهته الخاصة... لا يُشرب استعجالًا، بل كما يُقرأ كتاب عزيز.

وفي القرى، لا تزال العادات تمشي على مهل. الأعراس تمتد لأيام، تبدأ من خيمة بيضاء، وتنتهي برقصة جماعية يُشارك فيها كل من عرف العروس منذ ولادتها. الأمهات لا يبكين العروس لأنها ستغادر، بل يهمسن في أذنها نصائح طويلة، فيها حب، وخوف، وحنين مبكر.

أما في الحزن، فالتونسي لا يجهش بالبكاء... بل يحافظ على وقار الكلمة، ويُكثر من الدعاء. النساء يُطهين الكسكس ويوزّعنه على الجيران، لا لأن ذلك من العادة فقط، بل لأن في المشاركة شفاءً خفيًا. البيت يُفتَح، لا يُغلَق، لأنهم يؤمنون أن العزاء لا يُحتمَل وحده.

تونس لا تُلقي بنفسها عليك... بل تنتظر أن تقترب. هي أشبه بوردةٍ نبتت في دربٍ قديم، لا تصرخ بلونها، لكنها تفوح بعطر من يعرف كيف يقترب.

وحين تغادرها، لا تشعر أنك طويت صفحة... بل كأنك وضعت إشارة كتاب على سطر لم ينتهِ بعد. سطرٌ يقول: هنا تبدأ حكاية أخرى، بلغة أخرى، وأرضٍ لها نبضٌ مختلف... نبضٌ يشبه الطبول القديمة، وضوء الشمس الحاد، والضحكات التي ترتفع رغم كل شيء.

وهكذا، بدأت الرحلة الجديدة... إلى العمق، إلى تحت خط الشمس،

حيث أفريقيا جنوب الصحراء لا تُقرأ في الأخبار... بل تُروى في العيون، وتُفهم بالخطوات، وتُكتَب بالعرق، والغبار، والحلم.

الفصل الخامس:

تحت خط الشمس: حكايات من قلب أفريقيا جنوب الصحراء

ما إن انتهيت من تتبّع خيوط الحكاية في العالم العربي، حتى انفتحت أمامي صفحة مختلفة تمامًا... صفحة لا تواصل ما قبلها، بل تُكسره لتبدأ من جديد.

جنوب القارة الإفريقية ليس امتدادًا جغرافيًا فقط، بل تحوّل في الإيقاع، في الألوان، في معنى أن تكون إنسانًا يعيش على نبض الأرض.

هنا، لا تُقاس الأيام بالساعات، بل بالرقصات، والأمطار، وهدير الطبول.

في جنوب القارة، كل شيء يبدو أعمق مما يبدو: الجوع ليس مجرد نقص، بل خلفه حكاية استعمار طويل، والفرح ليس لحظة عابرة، بل مقاومة يومية.

اللغة هنا ليست كلمات... بل أجساد تتحرّك، وعيون تبوح، وموسيقى تُقال بدل الكلام.

لم آتِ إلى هذه البقعة من العالم بفضول المستكشف... بل باحترام من يعرف أنه أمام حضارات لم يُنصت لها كما يجب.

حضارات لم تُكتب بالحبر، بل بالحركة، بالحياة، وبالقدرة المدهشة على النجاة.

هنا تبدأ الحكاية من جديد... جنوب إفريقيا البلد الذي لم يُشفَ تمامًا من جراحه، لكنه عرف كيف يحوّل الألم إلى موسيقى، والتمييز إلى نضال، والصمت إلى صوت عالمي.

لكن هذا الصوت، لم يكن هو البداية. البداية كانت من هناك... من عتبة الجنوب الأولى، من تلك الأرض التي تلامس حافة الصحراء وتقاومها بالغناء، من بلد لا يحتاج إلى الصراخ كي يسمعه العالم: السنغال.

في السنغال، لا تبدأ الحكاية من المعالم أو من خرائط السفر... بل من الناس. هنا، الإنسان هو أول ما تراه، وآخر ما تنساه. في الطرقات، الكل

يُحيي الكل، حتى الغريب يجد لنفسه مكانًا في النظرة، في الابتسامة، في الدعوة إلى الشاي. والشاي السنغالي، أو "أتايا"، لا يُقدَّم بسرعة. إنه طقس، يُعدّ على مراحل، وتُشرب منه ثلاث كؤوس، كل واحدة أكثر مرارة من سابقتها... حتى تعتاد الطعم، وتفهم المغزى: أن الحياة ليست دائمًا حلوة، لكنها دائمًا تُعاش.

داكار، العاصمة، لا تشبه العواصم في زحمتها أو فوضاها. إنها مدينة بحرية تعيش على إيقاع الأمواج، وعلى صوت الطبول الذي يتسرّب من الأحياء الشعبية كأنه إعلان عن بقاء الروح حيّة. هناك، لا يمكن أن تمرّ بجانب جدار دون أن تلمحه ملوّنًا برسمة، أو كتابة، أو أثر قصة. الفن ليس رفاهية هنا، بل وسيلة تنفّس. وحتى الغرافيتي، له مكانة تشبه مكانة الشعر، يُحكى، يُشرح، ويُعتزّ به.

في السنغال، الكلمة الأقرب إلى روح البلاد هي "تيرانغا". هذه ليست مجرد تحية أو تقليد اجتماعي، بل فلسفة كاملة في الكرم والضيافة والاحترام. أن تكون سنغاليًا، يعني أن تعتبر الضيف جزءًا من العائلة، ولو جاء فجأة، ولو لم يأتِ بشيء. وعلى مائدة الطعام، لا يُسأل أحد: هل دُعيت؟ بل يُقال له فورًا: "اجلس، كلنا إخوة في هذه اللحظة."

الأكل نفسه يحمل روح الجماعة. "تيبّو جين" – الأرز بالسمك – هو الطبق الوطني، يُطهى في قدر كبير وسط البيت، وتُوضع عليه الخضروات والتوابل والأمل. يجلس الجميع حوله، يأكلون من صحن واحد، بيد واحدة، دون استعجال، كأنهم يؤمنون أن كل لقمة لا تؤكل مع الآخرين... ناقصة.

وفي الأعراس، لا يُقاس الاحتفال بحجم القاعة أو بمستوى الصوت، بل بعدد الأيدي التي شاركت في الطهي، وبعدد الخطوات التي رقصها العريس والعروس مع الجيران. الموسيقى ليست مهنة هنا، بل نَفَس. والرقص لا يُعلَّم، بل يُورّث، في القدم، في الورك، في الكتف، في التوقيت الدقيق للضرب على الأرض.

وفي الحزن، لا يُمنع الصوت... بل يُحوَّل. تبكي النساء على شكل أنشودة، وتخرج الجنازات على إيقاع ضرب الطبول الخفيف، كأن الراحل لا يُودَّع، بل يُعاد إلى الأرض بنفس الإيقاع الذي خرج منها. وهناك مثل شعبي يُقال دائمًا في لحظات الحزن: "الماء لا يُنسى الطريق إلى البحر." ويقصدون به أن الروح ستجد طريقها إلى السلام، مهما طال الغياب.

في السنغال، لا تنجو فقط، بل تحيا برأس مرفوع. رغم ما مرّت به البلاد من استعمار، من فقر، من نسيانٍ عالمي، ظلّت تحتفظ بجمالها الداخلي، بإيمانها بنفسها، بحكاياتها التي لا تُروى كلها دفعة واحدة، بل تُقطَّر في الأحاديث، وفي الدعوات، وفي إيقاع الحياة الذي لا يشبه إلا نفسه.

ولذلك، فإن السنغال لم تكن مجرد بداية لهذا الفصل... بل كانت المعبر الحقيقي إلى قلب أفريقيا. معبر لا تُفتح بوابته بالمفاتيح، بل تُفتَح حين تقرر أن تمشي على الأرض ببطء، وتحترم إيقاعها، وتستمع لا إلى صخبها... بل إلى نبضها.

وكأن السنغال لم تكن بوابة فقط... بل اختبارًا. اختبارٌ للروح: هل تستطيع أن تدخل إلى عمق إفريقيا لا كسائحٍ يعبر، بل كمن ينوي أن يصغي؟ وما إن تخطيت هذه البوابة، حتى شعرت أن ما ينتظرني ليس مجرد بلد، بل كونٌ بأكمله. كونٌ اسمه نيجيريا.

نيجيريا لا تستقبلك ببطاقة تعريف بسيطة. بل بكلمات من لغات متعددة، بأصوات الأسواق التي لا تهدأ، بضحكات النساء، ووجوه الأطفال، وروائح "السويّا" – اللحم المشوي على الفحم – تتصاعد من

الزوايا. إنها بلد مزدحم بكل شيء: بالتاريخ، بالتناقضات، بالاختراعات، وبالحكايات التي لا تسعها حتى جغرافيا بحجم نيجيريا.

في لاغوس، لا وقت للفراغ. المدينة لا تنام، لا تتثاءب، بل تنهض كل يوم وكأنها في سباق مع نفسها. عند الإشارات، ترى من يبيع الماء، ومن يعزف على الغيتار، ومن يصرخ باسم شاعرٍ قديم. المال هنا ليس وحده الهدف، بل الحضور. أن تكون حاضرًا، أن تصرخ، أن تفاوض، أن تعلن عن نفسك... لأن الصمت يُنسى، بينما الصوت يُحفظ.

لكن نيجيريا ليست لاغوس وحدها. فهناك الشمال الذي يشبه الحكايات القديمة، حيث يُروى أن الجمال كان يُقاس بعدد الجِمال التي حملت مهر العروس. وهناك الجنوب، حيث النهر والبحر يتقابلان، وتُقام الموالد بطقوس مختلطة بين الوثني والإسلامي والمسيحي... دون توتر، بل كأن البلاد كلها تؤمن أن الإيمان لا يُحتكر.

ووسط هذا التنوع، يوجد صوت واحد يعرفه الجميع: صوت الطبل. الطبل هنا لا يُستخدم فقط في الرقص، بل في الإخبار. كان يُقرَع في القرى ليُعلِم بقدوم مولود، أو وفاة حكيم، أو بداية موسم حصاد. وحتى اليوم، لا يبدأ الاحتفال في نيجيريا ما لم يُقرَع الطبل الأول. ويقولون مثلًا

شائعًا: "إذا لم ترقص عندما يُقرَع الطبل، فربما لست من هذا المكان." لأن الإيقاع في نيجيريا... هو لغة وطنية.

في الأعراس، يرتدي الرجال والنساء ملابس تقليدية مشغولة يدويًا، تتغيّر ألوانها بحسب القبيلة والمناسبة، لكن شيئًا واحدًا يبقى ثابتًا: الفخر. يرقصون بكرامة، يضحكون من القلب، ويقدّمون الأرز بالفلفل وكأنهم يقدمون ذهبًا. ووسط الزينة والأغاني، تجد دائمًا جدة تجلس في الزاوية، تروي قصة جدٍّ قاتل في الثورة، أو حفيدٍ صار شاعرًا، أو جارٍ هاجر ولم يعد.

أما في الحزن، فالأغاني لا تتوقّف. بل تتبدّل. يُغنّى للموتى، لا وداعًا فقط، بل اعترافًا بفضلهم، وكأن الأغنية تقول: "كُنت هنا... ولن تُنسى." وتُوزَّع أطباق من الطعام على الجيران، لا لأنهم جائعون، بل لأن الحياة يجب أن تستمر، ومن واجب من بقي أن يُطعِم من حوله.

نيجيريا، كما يقول مثلها الشعبي: "النخلة لا تُرمى بالحجارة إن لم تكن مثمرة." وقد رُميت هذه البلاد بالكثير، لكنها دائمًا تنهض. تمشي بعيون مفتوحة، بأحلام ضخمة، وبإرثٍ لا يُطوى بسهولة. إنها ليست فقط

دولة في إفريقيا... إنها إفريقيا نفسها، تختصرها بأصواتها، بطموحها، بوجعها، وبأملها المستمر.

كأن نيجيريا لم تكن خاتمة لحكاية، بل جسرًا إلى حكاية أخرى... بنفس الإيقاع، لكن بنغمة مختلفة. وكلما عبرت غرب القارة نحو الأطلسي، كانت غانا بانتظاري. لا بأبراج شاهقة أو مراكز تسوّق عملاقة، بل بأبواب خشبية تُفتح على العالم، وبشوارع تنبض بالموسيقى والودّ، وبصوت أم تصرخ على ابنها بلغة توحي أنك أمام أمّ لكل القارة.

في أكرا، العاصمة، لا توجد حواجز بين الناس. الغريب ليس غريبًا، بل مؤقت فقط. المدينة تشبه حفلًا بدأ منذ قرون، وما زال مستمرًا، بلا مقدمات أو ختام. الباعة الجائلون يتنقلون بين السيارات بعفوية، والروائح التي تصعد من عربات الطعام تجعلك تشعر أن الوطن... قد يكون أحيانًا طعمًا. رائحة الأرز المفلفل مع الفلفل الحار، و"الشيطو" – صلصة الفلفل المجفف – توقظ فيك كل الحواس، وتدفعك لتقول: "نعم، أنا هنا، وأحب ما يحدث."

غانا ليست فقط أكرا، بل القرى المحيطة بها أيضًا، حيث البيوت تُبنى بالطين والخشب، وتُزخرف بالأيدي، لا بالفُرَش. وهناك، يعرف الناس

بعضهم بالعيون، لا بالأسماء. الأطفال يلعبون حفاة، النساء يغنين أثناء طحن الذرة، والرجال يجتمعون عند ظل شجرة ضخمة، يناقشون السياسة، ويشربون شراب "الكبيسي"، وكأنهم يملكون مفاتيح العالم.

في غانا، الفن ليس ترفًا، بل ضرورة. في كل زاوية ترى لوحات تحمل وجوهًا سوداء فخورة، بأسماء كبيرة مثل "الحرية" و"الشجاعة" و"العودة". وعندما تسأل عن هذه الأسماء، يُقال لك إن غانا هي أول بلد إفريقي نال استقلاله من الاستعمار، وإن "نكروما" – الزعيم الذي لا يزال صوته يتردّد – لم يكن فقط سياسيًا، بل شاعرًا وواعظًا.

في المناسبات، يتزيّن الناس بملابس "الكِنتي"، القماش الملون المحبوك يدويًا، لكل لون فيه دلالة، ولكل نمط قصة. الحياكة ليست مهنة فقط، بل شرف. ويقول المثل الغاني: "لا تثق بمن لا يعرف كيف يربط عقدة في ثوبه." أي أن من لا يحترم التفاصيل... لا يُؤتمن على الصورة الكبيرة.

الأعراس تبدأ من فجر اليوم، برقص النساء في الساحات، وطبول تُقرع بلا توقف. الحضور لا يُجلسون صامتين... بل يرقصون جميعًا، لأن

الرقص هو لغة الحضور والامتنان. وحتى كبار السن يشاركون – بحركات قليلة، لكن بعيون مليئة بالحياة.

أما الموت، فيُعامل باحترام خاص. تُصمَّم توابيت بأشكال غريبة: على هيئة سمكة، أو سيارة، أو حتى كتاب، حسب مهنة الراحل أو حلمه. وتُقام الجنازة لا كوداع، بل كعرض أخير. يتجمّع المئات، تُقرع الطبول، وتُروى قصص، ويُقال في ختامها: "ذهب، لكن طريقه لا يُمحى."

في غانا، لا شيء يُلقى عبثًا. حتى الحكاية العابرة تُلتقط وتُخبأ، وكأنها ستكون يومًا ما حجرًا في بناء الروح. فهنا، كل تفصيلة صغيرة... تسند الحكاية الكبيرة.

وحين غادرت رواندا، لم أشعر أنني أتركها... بل كأنني أودّع صديقًا تعلّمت منه الصبر، والكرامة، ومعنى أن تبني بيتًا فوق ركامٍ دون أن تفقد ابتسامتك. هناك، لا تُنسى الأشياء لأنك قرأتها... بل لأنك عشتها لحظة بلحظة، بين الجبال والحقول، وبين القهوة الصامتة والضحكات التي تشبه العناق.

أوغندا ليست فقط بلدًا على الخريطة... بل ملامح كاملة لقارة كاملة. فيها من الماء أكثر مما تتخيّل، ومن الخضرة أكثر مما تحتمل العين، ومن

البساطة ما يُربك المدن الحديثة. هناك، لا تأتي الأشياء مسرعة، بل على مهل... كما لو أن الزمن نفسه قد قرر أن يتمشى.

في العاصمة كمبالا، تفوح رائحة المطر حتى قبل أن يهطل. البيوت متراصّة لكنها لا تُشبه بعضها، وكأن لكل بيت رأيًا خاصًا بالحياة. في الأسواق، يختلط صوت البائع بصفير العصافير، وتتعانق الألوان في الفواكه كما لو أن الطبيعة قررت أن ترسم نفسها في سلال القش. لا أحد هناك يرفع صوته ليقنعك... بل يبتسم، ويترك لعينيك القرار. في أوغندا، الابتسامة ليست مجاملة... بل لغة.

لكن ما إن تغادر العاصمة، حتى تبدأ رحلة أخرى.

في الأرياف، الحياة بسيطة حدّ الصفاء، لكنها ليست خالية من العمق. هناك، تُرى النساء وهن يغسلن الملابس في الأنهار، ليس كعمل منزلي فقط، بل كمناسبة للتلاقي والغناء. الأطفال يركضون خلف بعضهم بين الأشجار، وأحيانًا يركضون خلف الماعز، أو خلف أحلام صغيرة، لا تُقال لكنها تُعاش.

العادات في أوغندا ليست صاخبة... بل راسخة. في حفلات الزواج، يجلس كبار العائلة في الصف الأمامي، يراقبون الشباب وهُم يرقصون

رقصة "باكيغا"، رقصة لا تحتاج إلى موسيقى قدر ما تحتاج إلى جذور. والهدية لا تُقدَّم بعلبة فاخرة، بل غالبًا تكون شيئًا له معنى: كيس من الذرة، أو سلّة موز، أو حتى شال حاكته الأم في صمت المساء.

وفي الأحزان، لا يجلس الناس منفردين. بل تُقام الجنازة كوجبة جماعية، تُطهى فيها اللحوم وتُقدَّم الأطباق ويُشعل الحطب. لأن الحزن هناك لا يُسكَن بالصمت، بل يُواجَه باللمة، بالأكل، وبكثرة الذكر.

وفي أمثالهم الشعبية، تجد خلاصة الفهم العميق للحياة، مثل قولهم: "من لا يعرف مكانه، يتوه حتى في البيت." مثل بسيط، لكنه يشبه أوغندا نفسها... بلد يعرف تمامًا مكانه في قلوب أهله، ومكانه في ذاكرة القارة، رغم كل ما مرّ عليه من أوجاع وتحوّلات.

أوغندا لا تتركك كما أنت... بل تهدهدك، وتهمس لك بلغة لم تكتب في الكتب، بل في عيون الأمهات، وعلى شفاه الجدة حين تروي حكاية عن تمساح صار نهرًا.

وفي أوغندا، للطبيعة سلطة لا ينازعها أحد. الأشجار لا تُقطع بسهولة، والأنهار لا تُعكّر، والجبال تُعامَل كما تُعامَل الأرواح... باحترام خالص. السكان هناك لا يرون في الطبيعة مجرد محيط حي، بل كائناً مُقدّساً

يعيش معهم. في بعض القرى، يقدّم الناس القليل من طعامهم تحت ظل شجرة ضخمة في أول كل شهر، ليس تقليدًا ساذجًا، بل شكرًا على الظل، وعلى الثمر، وعلى الحياة.

ثمّة إيمان راسخ بأن كل شيء حيّ له روح: الحجر، والماء، والريح. حتى الطبول التي تُستخدم في المناسبات لا تُضرب إلا بعد أن تُمسَح بالأيدي، وكأنهم يوقظونها بلطف لا بعنف.

في التعليم، لا تُقاس المدرسة فقط بعدد الصفوف، بل بالمعلمة التي تحفظ أسماء الطلبة كما تحفظ القصائد. هناك مدارس من طين وسقوف من صفيح، لكن فيها إصرار لا تراه في أبراج زجاجية. يقولون في أوغندا: "المعرفة لا تحتاج إلى بوابة... بل إلى صدق." ولهذا ترى الأطفال يقطعون الكيلومترات سيرًا على الأقدام، وحقائبهم من القماش الرخيص، لكن أعينهم مليئة بعزم لا يُزحزح.

وفي الريف، حين تلتقي بالعائلة الأوغندية، لا يسألونك من أين أتيت، بل يسألون: "هل أكلت؟" لأن الطمأنينة في أوغندا تبدأ من المعدة، ثم تنتقل إلى القلب.

الليل هناك لا يُخيف. بل يُرافق الناس بهدوء، يشتعل فيه القمر كأنّه فانوس معلق في السماء. وتبدأ الحكايات، لا على التلفاز، بل من فم الجد، من صوت الأم وهي تهمس للصغير بقصة فيها أسد، وغابة، وصيّاد طيّب. الحكاية ليست فقط لتسلية الطفل، بل لتذكيره أن الخير لا يموت... حتى لو نام وربما أكثر ما يميز أوغندا، هو قدرتها على احتضان التناقضات: مدن تتحرك بسرعة، وقُرى تمشي ببطء. ديانات متعددة، لكنها تصلي في توقيت واحد. لهجات كثيرة، لكن الضحكة فيها كلها واحدة. وكأن هذا البلد، وسط الخضرة والماء والسكينة، قرّر أن يعيش دون حاجة لأن يكون مثل أحد... فقط أن يكون هو، كما هو.

أوغندا، في النهاية، لا تُلخَّص. هي بلد لا يُكتب في سطر، ولا يُزور في عطلة قصيرة. بل بلد يُعاش... أو يُحلم به، كلما احتجت أن تتذكّر كيف يمكن للعالم أن يكون بسيطًا... وجميلاً... وعادلًا، دون أن يصرخ.

ولم تكن أوغندا إلا الخطوة التي سبقت الباب الكبير... الباب الذي كان لا بد أن أطرقه بحذر، وباحترام، وبلُغة ليست من كلمات، بل من تأمُّل طويل. هناك، على تلال خضراء لا تنتهي، في بلد بكى على نفسه يومًا حتى

جفّت دموعه، ثم قرّر أن يبتسم للعالم دون أن يمحو ذاكرته... كانت رواندا.

رواندا لا تهمس لك... بل تنظر في عينيك مباشرة، وتدعوك أن ترى الحقيقة كما هي. بلدٌ لا يخفي جراحه، لكنه لا يسمح لها أن تُحدّد ملامحه. الكارثة التي عرفها العالم في تسعينيات القرن الماضي، لا تُذكر هناك كمأساة فقط، بل كدرس جماعي كُتب بالدم، وحُفِظ في العظام.

في كيغالي، لا تصرخ الذكرى... لكنها تمشي إلى جوارك، وترافقك من النصب التذكاري، إلى الأسواق، إلى المقاهي. كلّ شيء هادئ، لكنه مشحون. كل زاوية تحمل قصة. ومع ذلك، الحياة لا تتوقف. الناس يزرعون، ويُنشئون الأعمال، ويبتكرون مستقبلًا لا يخاف من الماضي. كأن البلاد اتفقت على نُبلٍ جديد: أن تكون قويًا لا يعني أن تَنسى، بل أن تتحمّل الذكرى، وتمشي بها.

النساء في رواندا لسن فقط جزءًا من المجتمع... هنّ عموده. بعد المجازر، كنّ أول من أعاد ترتيب البيوت، وجمع الأطفال، وفتح المدارس. والآن، هنّ في البرلمان، في الشوارع، في الشركات، وفي الحقول.

يلبسن بثقة، ويتحدثن بلا تردد. كأن القوة الناعمة تحوّلت هناك إلى قوة صلبة.

حتى في الطعام، تُحكى الحكاية. طبق "إيسومبو" الحار، وسُوق الموز المجفف، ليسا مجرد نكهات، بل ذاكرة تُؤكل. على الأرصفة، تُباع الحياكة اليدوية، وتُنصب طاولات بها أساور من الخرز، بعضها يحمل كلمات من لغة "الكينيارواندا"، وبعضها مجرد ألوان... لكنها تتكلم، بطريقتها.

ولعل أجمل ما في رواندا... أن الفرح فيها ليس نكرانًا، بل تحدٍ. الأعراس تُقام في الهواء الطلق، تُزفّ العروس بأغانٍ قديمة، وتُحمل الهدايا على الرؤوس، وتُقدم القهوة للضيوف كأنها تحية للسلام. وفي الجنازات، لا يُسمع النحيب، بل تُروى الحكايات، وتُرفع الأدعية، كأن الراحل لم يغب... بل غيّر مقعده فقط.

أما مثلهم الشعبي، فهو خلاصة التجربة:"من لا يعرف الألم، لا يعرف الثمن." ولهذا هم يعرفون بالضبط قيمة ما بين أيديهم.

رواندا ليست بلدًا يُكتفى منه بزيارة، بل بلدٌ يُدرَّس... ليس لأنه مثالي، بل لأنه جرّب السقوط، وعرف كيف ينهض بشرف.

وإذا كانت رواندا قد علمتني كيف ينهض بلد من تحت الأنقاض، فإن كينيا كانت درسًا آخر... درس في التوازن بين التقدّم والتقاليد، بين الحداثة التي تمشي في شوارع نيروبي، والطقوس القديمة التي ما زالت تعيش في القرى كما لو أن الزمن لم يمرّ.

في كينيا، لا يمكنك أن تغضّ النظر عن الطبيعة، حتى لو حاولت. كل شيء هناك يصرخ بالحياة: الأرض، الأشجار، الغابات التي تحرسها الفهود، السهول التي تجري فوقها الظباء. "ماساي مارا" ليست مجرد محمية طبيعية، بل مسرح مفتوح تتحرّك فيه الحيوانات وكأنها تعرف أنها تُشاهَد، لكنها لا تعبأ. والأسد لا ينتظر تصفيقًا... بل يزأر كما اعتاد منذ قرون.

نيروبي نفسها، المدينة التي قد تبدو من بعيد مدينة مثل كل المدن، لا تحتاج إلى وقت طويل لتكشف عن طبقاتها. هناك تجد برج الأعمال بجوار بائع الخشب، والمصرفي يرتدي بذلة فاخرة يمرّ بجانب طفل يبيع النعناع في الزحام. لا شيء يُخفي شيئًا... بل كل شيء هناك صادق، ظاهر، ومعاش كما هو.

المرأة الكينية تلبس "الكانغا" المطبوعة برسائل، أحيانًا تحمل مثلًا شعبيًا، أو أمنية، أو حتى نكتة. قطعة القماش ليست فقط للزينة، بل رسالة تُقرأ وتُرتدى. وأشهر أمثالهم التي علقت بذاكرتي تقول:

"الشخص الذي يُطعمك، لا تُطعنه في الظهر."مباشر، واضح، لا يحتاج إلى تفسير.

في الأرياف، تُشعل النار صباحًا لطهو الفطور، وتُغسَل الصحون بيدين مملوءتين بالحكمة. الصغار يذهبون إلى المدرسة حفاة أحيانًا، لكنهم يحملون حقائب مملوءة بالأمل، وأعينهم تشعّ بأسئلة أكبر من سنّهم. المعلم هناك لا يُعامل كموظف... بل كصانع مصير.

الأعراس في كينيا لا تقام فقط لتزويج شاب وفتاة، بل لتأكيد الانتماء. الرقصات الجماعية، الطبول، الهتاف الذي يبدأ همسًا ثم يتحول إلى هدير... كل ذلك ليس مجرد فرح، بل طقس قديم يحمل في طياته أكثر من معناه. العروس لا تُزف فقط لبيتٍ جديد، بل تُستقبل كما تُستقبل الملكات، وسط غناء الجدّات وصلوات الأمهات.

وفي الحزن، لا تسيطر الكآبة، بل التضامن. الناس يأتون بأيديهم لا بفمهم. يحملون الماء، والطعام، ويجلسون بجانب الفاقد حتى لو لم يتكلموا. الصمت في كينيا له معنى: أحيانًا يقول كل شيء.

في كينيا، لا يُنظر إلى الغد كأنه حلم بعيد، بل كاستحقاق. الناس هناك يعرفون أن الحياة لا تُمنح... بل تُبنى. ولهذا تراهم يزرعون، يعملون، يضحكون، ويتحركون إلى الأمام... حتى لو كان الطريق طويلًا.

وإن كانت كينيا تُعرَف عالميًا بسفاري السافانا، فإن ما يميزها حقًا هو "الحياة اليومية". تلك اللحظات التي لا تُصوَّر بكاميرا، ولا تُدوَّن في أدلة السفر. في القرى، الحياة تسير بإيقاع خاص، لا تفرضه ساعة، بل تفرضه الشمس حين تشرق، والدجاج حين يصيح.

في الصباحات الكينية، يُعدّ الشاي بالحليب والسكر والزنجبيل، لا على عجل، بل على مهل. يُصب في أكواب معدنية، ويُقدَّم للجميع. الشاي ليس للضيافة فقط... بل للحضور. يجلسون به، ويتحدثون، ويستعيدون ما جرى بالأمس وما قد يأتي غدًا. لا يُقطع الحديث بهاتف، ولا يُسرع الوقت برغبة اللحاق بشيء ما. الكينيون يعرفون أن الحديث الصادق أغلى من الذهب.

وفي المدارس الريفية، ترى فصولًا من الطين، لكن فيها عزيمة من حديد. المدرّس يأتي أحيانًا من قرية بعيدة، ويمشي ساعات ليصل. لا أحد ينتظر مكافأة، ولا يشتكي من الصعوبات... لأن التعليم هناك ليس خدمة، بل وعد.

من القصص التي سمعتها، أن قرية كاملة جمعت المال لبناء فصل دراسي إضافي، لا لأن الدولة طلبت، بل لأن أطفالهم يستحقون أكثر من الظلّ تحت الشجرة. وفي ذلك، تظهر روح كينيا الحقيقية... مجتمع لا ينتظر، بل يبادر، ويخلق الفُرص بأبسط الأدوات.

أما الأسواق الشعبية، فهناك تجد كينيا في أوضح صورها. السوق ليس فقط لبيع الخضار، بل هو نشرة الأخبار، والصالون، والمسرح المفتوح. السيدة التي تبيع الذرة المشوية بجانب الشاب الذي يضع الأقراص المدمجة، بجوار امرأة تطرز "كيتينجي" ملون، كلهم جزء من منظومة فيها فوضى جميلة، ولكنها فوضى تعرف ما تفعل.

في الشارع، لا أحد يراك غريبًا طويلاً. "جيمبو!" هي التحية التي تُقال بابتسامة، وتعني: مرحبًا. وإذا كنت ضيفًا، فالضيف له مكانه، حتى لو لم يُعرَف اسمه. "المكان يكبر إذا شاركناه" هكذا يردد البعض، وهم

يوسّعون الجلوس لتشاركهم قطعة من الموز المقلي أو كوب عصير قصب طازج.

وللأرض هناك احترام خاص. الزراعة ليست وظيفة، بل علاقة. يلمسون التربة كأنها جلد الأم، وينتظرون المطر كمن ينتظر وعدًا قديمًا بالفرج. موسم الحصاد ليس مجرد وقت لجمع المحصول، بل هو موسم الاحتفال، والرقص، وإعادة تأكيد الرابط مع الأرض.

الهوية الكينية ليست واحدة، بل فسيفساء من قبائل وثقافات تتعايش بلا صراع. الكل يعرف أصله، ويفتخر به، لكنهم يجتمعون تحت علم واحد، وأغنية وطنية واحدة، تقول في نهايتها:

"فلنقف جميعًا معًا، أبناء كينيا جميعًا."

كينيا لا تُكتشف في أسبوع، ولا تُفهم من رحلة سريعة. هي من تلك البلاد التي لا تُحب السطحيين. يجب أن تجلس، أن تصمت قليلًا، أن تُنصت للطبل وهو يُقرع من بعيد، أن تمشي في طريق طويل من دون هدف واضح... فقط لتجد أنك وصلت

...ولأن الوصول في إفريقيا لا يعني النهاية، بل بابًا جديدًا لفهمٍ أعمق، كانت تنزانيا تنتظرني، لا كوجهة، بل كامتداد طبيعي للخطوة السابقة. كينيا كانت الرحلة، وتنزانيا... كانت التأمل.

منذ اللحظة الأولى، شعرت أن الإيقاع هنا أبطأ قليلًا. ليس تباطؤًا كسولًا، بل سكينة متعمدة، كمن يختار أن يتذوّق الحياة رشفةً رشفة. زنجبار، تلك الجزيرة التي تسبح في عبير القرنفل، لا تبدأ صباحها بصراخ المنبّهات، بل بأذان الفجر، بنفَس البحر، بأبوابٍ خشبيةٍ محفورة تنفتح وكأنها تروي لك قصتها كلّما دُفعت.

"ستون تاون" ليست مدينة قديمة فقط... بل متحف حي. الجدران المتشققة لا تستجدي الطلاء، لأنها تعتزّ بندوبها. في المقاهي الصغيرة، يجلس رجال كبار بالسن يرتشفون القهوة ويديرون أحاديث لا تُقال كلها، بل تُفهم من بين النظرات. لا أحد يستعجل الوقت هنا، لأن الوقت في زنجبار ليس عملة تُصرف، بل ضيف يُكرم.

لكن تنزانيا ليست البحر وحده الداخل مختلف في أروشا، في السهول الممتدة، في الحقول المفتوحة، تبدأ الطبيعة بتلقينك درسًا آخر: أن الاتساع لا يعني الفراغ. في "سرينغيتي"، لا شيء مصطنع. كل شيء

يتحرك بإيقاعه الخاص. الزرافة تمشي ببطء كأنها تعلمك الصبر، والأسد لا يزأر دائمًا، بل يراقب بصمت، وكأنه يُذكّرك بأن الهيبة ليست في الصوت، بل في الثقة.

ثم هناك شعب الماساي... قبائل لا تُقاس أهميتها بعددها، بل بقدرتها على البقاء دون أن تفقد هويتها. حين يرقص الماساي، لا يفعلون ذلك للعرض، بل لتأكيد وجودهم. حين يقدمون لك كوب اللبن الممزوج بالدم، لا ينتظرون إعجابك... بل يختبرون صدق نيتك.

وفي تنزانيا مثل يقول: "البيت الذي لا يضحك، مريض."

وستفهم هذا حين ترى الناس يضحكون معًا في الشوارع، على مقاعد المهترئة، بجوار دكان صغير. الضحك هنا ليس رفاهية... بل شفاء يومي.

تنزانيا لا تبهر من أول لحظة، ولا تكشف كنوزها لمن يعبرها سريعًا. تحتاج أن تعيش معها قليلاً، أن تأكل من أكلها البسيط، أن تتحدث مع شيوخها، أن تسمع إلى الطبول في الليل، فتكتشف أن ما ظننته صمتًا... كان في الحقيقة حكمة.

في تنزانيا، لا تُقاس العلاقة بالناس بمدة التعارف، بل بصدق التفاعل. من أول لقاء، قد يدعوك أحدهم إلى بيته لتشرب كوبًا من "تشاي" — الشاي بالحليب والزنجبيل. ليس من باب المجاملة، بل لأن كرم الضيافة هناك لا يُدرّس... بل يُمارَس كعادة يومية. لا أحد يأكل وحده إن وُجد من يشاركه. وعلى البسط البسيطة، يجتمع الأصدقاء والجيران لتناول "أوغالي" أو "نياما تشوما"، ويضحكون بصوت عالٍ دون حرج. فكما يقول مثلهم الشعبي: "صديق واحد في الجوع خير من ألف في الشبع."

الزواج في تنزانيا مناسبة لا تُؤخذ ببساطة. لا يتعلّق فقط باتحاد شخصين، بل اتحاد عائلتين، وقريتين أحيانًا. الاستعداد له يبدأ بالمفاوضات التقليدية، حيث تُقدَّم "المهري" — مهر العروس — بشكل رمزي لكنه محمّل بالدلالة، وغالبًا ما يكون على هيئة ماعز أو ماشية أو سلال من الذرة. وبعد الاتفاق، تقام حفلات تستمر ليومين أو أكثر، تُقدَّم فيها الأطباق المحلية، وترقص النساء والرجال في دوائر متناغمة تُعبّر عن الفرح والقبول والاحتفاء بالحياة.

الأطفال في تنزانيا يُربّون على احترام الكبار منذ نعومة أظفارهم. لا يُنادون الكبير باسمه، بل بلقبه أو صفته، وأحيانًا يُنادى الشخص بلقب ابنه البكر، كنوع من التكريم. وإذا ما مرّ أحد الصغار أمام مجلس للكبار، فإنه ينحني قليلًا كتحية. وفي حال دخل مجلسًا، لا يجلس قبل أن يُدعَى، ولا يتكلم إلا إذا سُئِل.

أما الموت، فله وجهه الهادئ. لا تُقام له مراسم صاخبة، لكن الحضور يكتفون بالجلوس مع العائلة، أحيانًا لساعات، دون كلام كثير. فقط نظرات، ووجود صادق، وطعام يُقدَّم لتأكيد الاستمرار. يقال في مثلهم الشعبي: "الموت لا يُخيف من له بيت عامر بالأحباب."

حتى في تعاملهم مع الطبيعة، لا يُكثر التنزانيون من الشكوى. المطر قد يتأخر، أو يفيض، ولكن في الحالتين، يتم استقباله بالرضى. الفلاحون يعلقون على الطقس مثلًا يقول: "المطر الذي لا يأتي اليوم... سيأتي غدًا بوفرة." وهذا الإيمان بالزمن، بالتراكم، وبالصبر... يجعل للحياة طعمًا مختلفًا.

وفي المناسبات الدينية أو القومية، تُقرع الطبول، وتُنصَب الأعلام، وتُرتّل الأغاني الجماعية التي تُمجّد الوطن أو القبيلة أو الأم. الكلمة هنا

لا تُقال فقط... بل تُغنّى، وتُرقص، وتُحكى في حلقات حول النار، تمامًا كما فعل الأجداد من قبل.

تنزانيا، بكل تنوّعها القبلي واللغوي، نجحت في الحفاظ على نسيجها الاجتماعي دون أن تفقد ملامحها الأصيلة. هي ليست مجرد بلد فيه سافانا وطيورونمور، بل بلد فيه قلب يتّسع لكل من يقترب بتواضع.

وكان لا بد بعد كرم تنزانيا، وأمثالها التي تنصح دون أن تفرض، أن أواصل السير جنوبًا... لا بد أن أختبر إن كان بإمكان الهدوء أن يتحوّل إلى أسلوب حياة. وهكذا وصلت إلى زامبيا، البلد الذي لا يعلو صوته، لكنه لا يغيب عن البال.

في زامبيا، لا تهرك البدايات، لكنها تأخذك رويدًا رويدًا حتى تجد نفسك في عمق التجربة دون أن تنتبه. ليست كمن يصيح ليُرى، بل كمن يجلس في الزاوية وينتظر أن يُكتشف. تتجول في شوارع لوساكا فلا يُدهشك العمران، لكن يُدهشك الناس: ملامحهم الهادئة، إيماءاتهم التي تقول كل شيء بلا استعجال. هناك شيء في الطريقة التي يتحدثون بها يجعلك تُنصت. ليس لأن الكلام فصيح، بل لأن القلوب صادقة.

الأسواق ليست صاخبة كما في مدن أخرى، لكنها حيّة. امرأة تبيع الموز ووراءها طفل يضحك وهو يلهو بعجلة قديمة، ورجل يعرض عليك أخشابًا محفورة يدويًا فيها من الدقة ما يشبه الصبر الريفي. حتى الحرف اليدوية هنا تبدو كأنها خُلقت لتُحتَرم، لا لتُباع فقط.

أما القرى، فهي ذاكرة قائمة بذاتها. تدخل بيتًا من الطين المسقوف بالقش، فتشعر أنك تدخل مكانًا محاطًا بالحكمة. الجدّة هناك لا تجلس في الزاوية... بل في المنتصف، تُعلِّم وتروي وتقرّر. الأطفال لا يُربّون في عزلة، بل في حضن جماعي. لكل طفل أكثر من أمّ، وأكثر من أب، لأن التربية مسؤولية القرية لا الفرد.

الطعام ليس فقط لقيمات تُسكت الجوع، بل مناسبة اجتماعية. "نشيما" يُطهى في وعاء كبير، وتلتف حوله العائلة كما لو كانت تستعد لحكاية لا لوجبة. لا يؤكل بالملعقة، بل باليد، لأنها الوسيلة الوحيدة التي تضمن الصدق. المرق بجانبه، عادة ما يكون من الخضار، وأحيانًا من الأسماك الصغيرة، ويؤكل ببطء... لا من باب التحضّر، بل من باب الاحترام لما وُضع على الطاولة.

في زامبيا، لا تُقاس الأعراس بالذهب ولا بعدد المدعوين. يُقاس بمدى ما تضحك الجدّات، وبعدد المرات التي تُصفّق فيها النسوة حول العروس، وبمدى بقاء العريس هادئًا في حضرة شيوخ العائلة. يرقصون هناك لا من أجل العرض... بل لأن الفرح يطلب جسدًا يعبّر عنه، ولأنهم يؤمنون أن الرقص يطرد الحزن، كما تطرده الريح من بين الأشجار.

أما الموت، فهو لا يُصادفهم بغتة... لأنهم يعرفون أنه ضيف دائم. يُحاط بالحكايات، بالصبر، بالأغاني الخفيفة. يُقال أن الحزن في زامبيا "لا يُبكى عليه وحدك، بل يُحمَل عنك قليلًا، كلٌّ يحمل جزءًا." وتُقدَّم الوجبات في بيت الفقيد، لا للضيافة... بل لإثبات أن الحياة، رغم خساراتها، لا تنكسر.

والأمثال هنا تُملي الطريق. يقولون: "من لا يستمع للطبول البعيدة، لا يسمع الطوفان وهو يقترب." وهم لا يعنون الخطر فقط، بل الحكمة. أن تكون منتبهًا لما يُقال لك بلطف، قبل أن يُقال لك بعنف. أن تسمع الهمس قبل أن يُصبح صراخًا.

وحتى الموسيقى، هناك ما يقال عنها. ليست فقط أغاني تُذاع في الراديو، بل جزء من حياة الناس. الطبل هو أول ما يتعلّمه الطفل، لا

ليرقص، بل ليشارك. لأنه لا يُعتبر فردًا كاملًا ما لم يَعرف متى يضرب الطبل... ومتى يصمت.

وفي بعض القرى، ما تزال تُقام طقوس المرور إلى الرجولة كما كانت قبل مئات السنين. يُؤخذ الفتيان إلى الغابات لأيام، يتعلمون فيها الصبر، والانضباط، ومسؤولية الكلمة. لا يعودون كما خرجوا، بل وقد خُطّ في وجوههم أثر من الحكمة، حتى لو لم يقولوا كلمة واحدة. فالرجولة هناك ليست استعراضًا للصوت أو القوة، بل التزام بالوعد، وقدرة على الصمت حين يلزم.

النساء في زامبيا لسن هامشًا. هنّ القلب النابض للمجتمع، الحافظات للتقاليد، والمعلّمات للأغاني القديمة، والمشرفات على الطعام، والنصح، والحياة. في المزارع، تراهن يزرعن ويغنين. في الأسواق، يُساومن بابتسامة. وفي البيت، هنّ السقف الذي لا يسقط حتى حين تهبّ العواصف. وكأنّ الأمثال الشعبية عندهم – مثل: "امرأة واحدة تستطيع أن تُربّي أمة" – لم تُخلق من خيال... بل من واقع يُمارَس كل يوم.

أما في المساء، حين يغيب النهاروتبدأ الطبول بالقرع، تشعر أن العالم كله قد ضاق، إلا الروح. يلتف الناس حول النار، لا للدفء فقط، بل للحكاية. الطفل لا ينام دون قصة، والجدّ لا يُغلق فمه حتى تُروى الذكرى كاملة. هناك، يُقال إن من لا يسمع حكايات الكبار، سيمشي في الدنيا بلا ظل.

وهكذا، لا تخرج من زامبيا حقًا... بل تخرج منها وفيك شيء منها. في عينيك شيء من سكون غاباتها، وفي يديك طعم "النشيما"، وفي أذنك صدى طبل بعيد يذكّرك أن الحياة لا تُقاس بما نملك... بل بما نحمله في القلب من حكاية، ومن احترام لما مضى، ولمن مضوا. تترك زامبيا، لكنك تظل تتلفّت، كما لو أن شيئًا هناك ناداك، ولم تُجبه بعد.

وحتى الطعام هناك يملك طقوسه. "نشيما" الذرة المخلوطة بالماء والمطهوة حتى تتماسك، لا تُؤكل بالشوكة والسكين، بل باليد، مع الصلصات الغنية والخضار أو اللحم. لا أحد يأكل وحيدًا، فالوجبة لا تُشبع البطن فقط... بل تكرّس فكرة أننا معًا، دائمًا معًا.

وفي زامبيا أيضًا، لا يخجل الناس من الإيمان. الصلوات تُقال بصوتٍ عالٍ، والأغاني الروحية تُغنّى في الكنائس والساحات على حد سواء.

الدين هناك ليس طقسًا خاصًا... بل طريقة عيش. وكأن الأرض نفسها تحفظ ترانيمهم.

وهكذا، لا تخرج من زامبيا حقًا... بل تخرج منها وفيك شيء منها. في عينيك شيء من سكون غاباتها، وفي يديك طعم "النشيما"، وفي أذنك صدى طبل بعيد يذكّرك أن الحياة لا تُقاس بما نملك... بل بما نحمله في القلب من حكاية، ومن احترام لما مضى، ولمن مضوا. تترك زامبيا، لكنك تظل تتلفّت، كما لو أن شيئًا هناك ناداك، ولم تُجبه بعد.

وهكذا، لا تخرج من زامبيا حقًا... بل تخرج منها وفيك شيء منها. في عينيك شيء من سكون غاباتها، وفي يديك طعم "النشيما"، وفي أذنك صدى طبل بعيد يذكّرك أن الحياة لا تُقاس بما نملك... بل بما نحمله في القلب من حكاية، ومن احترام لما مضى، ولمن مضوا.

تترك زامبيا، لكنك تظل تتلفّت، كما لو أن شيئًا هناك ناداك، ولم تُجبه بعد.

وحين تطوي صفحة زامبيا، لا تطويها وحدها بل تطوي خلفها عشرات الصفحات التي كُتبت عبر الرحلة — من سُوق في فاس إلى مدرج في روما، من عرس يمنيّ إلى رقصة سامبا في ريو، من وشم امرأة في رواندا إلى صمت رجل في عمّان.

لم تكن تلك الأماكن "وجهات". كانت مرايا. كل واحدة منها أظهرت جانبًا من الإنسان حين يتحرك، حين يأكل، حين يحتفل، حين يحزن، حين يعيد الشيء نفسه كل يوم، لا لأنه اعتاد فقط... بل لأنه اختار أن يبقى وفيًّا لشيء ما.

وفي نهاية الرحلة، يتغير السؤال.

لم يعد: كيف يعيش الناس في بلدانهم؟

بل:

كيف تتحوّل العادة إلى سلوك؟ وكيف تصبح أداة لفهم السوق، لا فقط لفهم البشر؟

من هنا يبدأ فصل جديد، ليس في الجغرافيا ولا في العادات... بل في الطريقة التي تتحوّل بها العادة إلى سلوك، وإلى قرار يُتخذ دون أن نشعر.

الفصل السادس

كيف تصنع العادة سلوكًا؟

كنت أظن أنني أسافر عبر الكتب والبلدان لكى أتعرّف على العالم و أجمع الصور، و أصغي للحكايات، و أملأ دفاتري بالمشاهد والعجائب.

لكن في مكانٍ ما من الطريق، بدأت ألاحظ شيئًا آخر. شيئًا لا تكتبه الكاميرا، ولا تقوله الجدران، ولا يُلصَق على بو ابات المدن.

بدأت ألاحظ العادات.

طريقة الإمساك بكوب الشاي، عدد المرات التي يفتح فيها الناس النو افذ، نوع الحذاء الذي يُخلع على العتبة... أشياء صغيرة تتكررحتى تصبح طبيعية، ثم تصبح هوية، ثم يصبح المساس بها مساسًا بكرامة كاملة.

هناك بلاد تشرب الشاي، وبلاد تقدّمه أولًا.

بلاد تضع الملح فوق الخبز، وبلاد تراه خطيئة.

بلاد تسأل قبل أن تعانق، وبلاد تعانق دون أن تسأل.

لم تكن هذه المشاهد عابرة. بل كانت مفاتيح.

مفاتيح لفهم الناس، لفهم الأسواق، لفهم لماذا ينجح شيء في مكان، ويفشل في آخر.

مفاتيح لفهم لماذا يحب الناس شيئًا يراه غيرهم بلا قيمة، ولماذا تذبل أفكار عظيمة إذا زُرعت في تربة لا تشبهها.

في هذا الفصل، لن أتحدث عن بلدٍ بعينه، بل عن الناس.

عن السلوك الذي تُنتجه العادة، والعادة التي تُصنع من التكرار، والاحترام، والتاريخ الشخصي والجماعي.

سأحكي عن أمثلة حقيقية — من حملات تسويقية انكسرت لأنها تجاهلت عادة، إلى قصص نجاح بسيطة بُنيت فقط على فهم العادة لا أكثر.

لأن كل منتج، في النهاية، لا يدخل السوق فقط... بل يدخل البيت، يدخل اليوم، يدخل الإيقاع.

وإذا لم يشبه ما فيه، لفظه الناس كما يلفظ الجسد ما لا يتعرّف عليه.

هنا، سنسير في الشوارع القديمة مرة أخرى. لكن بعين مختلفة.

بعين تسأل:

كيف تتحوّل العادة إلى سلوك؟

ولماذا تشتري الأم هذا الصابون، لا غيره؟

ولماذا نرفض نكهة معينة، ونستريح لأخرى؟

ولماذا نُحبّ إعلانًا، وننفر من إعلان آخر؟

هنا، تبدأ الرحلة من جديد.

لكنها هذه المرة... ليست على الخريطة، بل داخل العادة نفسها.

في التفاصيل الصغيرة التي تمرّ بها كل يوم ولا تنتبه لها، لكنها هي التي تصنع قراراتك، ذوقك، وحتى اختياراتك دون أن تشعر.

ما الذي تصنعه العادة؟

ليست كل العادات عميقة، لكن العميق فينا غالبًا ما يتشكّل من العادة. قد تبدأ الحكاية من كوب قهوة، ليس لأنه الأفضل، بل لأنه صار عادتك. يد تمتد كل صباح من دون أن تُفكر، جرعة دافئة تسبق الكلام، إعلان داخلي أن اليوم بدأ. هكذا ببساطة، تتحوّل التفاصيل الصغيرة إلى سلوك، ويتحوّل السلوك إلى قرار ثابت، رغم كل الخيارات الأخرى الأرخص أو الأجود.

العادة لا تعني المنفعة، بل الألفة. والألفة في عالم السلوك، أقوى من الإقناع. لأنك حين تعتاد، لا تعود تختار... بل تكرّر شيئًا صار يُشبهك. في دراسة شهيرة، وُجد أن قرابة نصف قراراتنا اليومية لا نتخذها بوعي، بل لأننا اعتدنا اتخاذها. لا نذهب إلى المخبز نفسه لأن خبزه الأفضل، بل لأننا حفظنا وجه البائع، رنّة الباب، وحتى طريق العودة.

هنا بالضبط يدخل العالم التسويقي ليفهم ويعيد تشكيل كل شيء. لا تُبنى الحملات الكبرى على الإقناع، بل على التكرار المريح، على المألوف. كوكاكولا مثلًا، لا تبيع مشروبًا فحسب، بل تبيع الإحساس الذي ارتبط به: طاولة عائلية، إعلان قديم، لحظة عطش في صيف مراهقتك.

الزجاجة الحمراء لا تُشرب... بل تُستدعى من ذاكرة طويلة، راسخة، لم تُخترع اليوم.

ولهذا، من يظن أن الحملة الإعلانية القوية هي من تصنع التأثير، لا يفهم أن التأثير الحقيقي يبدأ حين يشعر الزبون أن المنتج يعرفه، لا حين يُشعره بأنه غريب. ومن هنا تأتي الأخطاء القاتلة، مثل تلك التي وقعت فيها بعض العلامات التجارية حين تجاهلت العادة واستهانت بالسياق. إعلان شهير لبيبسي في آسيا أراد أن يكون عاطفيًا، فأظهر شخصًا يمنح الآخر علبة مشروب أثناء جنازة. الغرب قد يرى فيه لفتة إنسانية، لكن في ثقافات شرقية تحيط الموت بسياج من الوقار، بدا المشهد فجًا، وانهار الإعلان في لحظة واحدة.

العادة ليست فقط ما نفعله كل يوم... بل هي ما نُحب أن نفعله دون أن نُسأل لماذا. ولهذا، فإنها تصنع شخصية كاملة لكل سوق. في اليابان، عادة الشراء الهادئ والبحث عن الجودة تجعل الإعلانات تتحدث بلغة الاحترام والخصوصية. في المكسيك، الحنين هو البطل، تُستدعى الجدة في المطبخ، والضحك الجماعي على الطاولة. أما في مصر، فالعادة تحب

الكلمة القريبة، الصوت العالي، المشهد الحي الذي يذكّرك بجارك لا بممثل في إعلان.

لا توجد وصفة واحدة. توجد عادة واحدة، لكنّها تلبس ألف وجه حسب من يعيشها. ومن يفهم هذا، لا يبيع فقط... بل يبني ثقة. ومن لا يفهمه، يخسر حتى قبل أن يبدأ.

ولهذا، لا يمكن أن نفهم الأسواق دون أن نفهم الناس، ولا يمكن أن نفهم الناس دون أن نراقب عاداتهم. فالأمهات لا يشترين مسحوق الغسيل الأرخص دائمًا، بل يشترين ما جربنه مرة، ونجح، ثم ربطنه بنتيجة جعلتهن يشعرن بأنهن "أدّين الدور". والرجال لا يغيرون الحلاق بسهولة، ليس لأن الأول ماهر دومًا، بل لأن الكرسي، المرآة، والحديث المعتاد، كلها كوّنت طقسًا لا يُكسر بسهولة.

بل إنك حين تراقب العادة، تكتشف أن كثيرًا من قرارات الشراء مبنية على الطمأنينة لا على الحاجة. الناس لا يشترون منتجًا بقدر ما يشترون شعورًا مألوفًا. لذا تسوّق الشركات الكبرى لما يسمّى "الانتماء العاطفي" قبل التسويق للميزة التنافسية. وهذا ما يجعل إعلانًا مثل إعلان "أنا أحبها" لماكدونالد زيستمر عقودًا... لأنه لا يقول لك إن البرجر الأفضل،

بل يقول: نحن في كل مكان، نحن معك في لحظتك السريعة، في سيارتك، في طفولتك، نحن جزء من يومك... فابق معنا.

وعندما تفهم العادة كجزء من الهوية، تفهم لماذا تفشل الحملات التي تأتي من خارج السياق. حملة تسوّق لمنتج نباتي بطريقة هجومية في بلد يحتفل بالشواء الجماعي كل نهاية أسبوع، ستُواجَه بالرفض ليس لأنها لا تُقنع، بل لأنها تهاجم عادة يرى الناس أنها جزء من ثقافتهم.

وهنا تظهر أهمية أن تتحوّل كل حملة إلى "محادثة مألوفة". لا يكفي أن تصرخ لتُسمع، بل أن تهمس بما يعرفه الناس مسبقًا، لكنهم كانوا بحاجة لأن يسمعوه منك.

السوق ليس آلة تحكمها الأرقام وحدها، بل هو كائن حي، يتنفس من عادة الناس، ويُصاب بالارتباك حين يُفاجَأ بشيء لا يشبههم. كثير من المنتجات لم تفشل لأنها سيئة، بل لأنها جاءت في الوقت الخطأ، أو تحدثت بلغة لم يفهمها أحد، أو حاولت تغيير سلوكٍ دون أن تحترم الممر الطويل الذي يسلكه الناس كل صباح دون أن يفكروا فيه.

فكّر في عادة صغيرة، مثل أن يشتري الناس القهوة من زاوية الشارع بدلاً من المقهى العصري اللامع. ليست المسألة في الطعم، بل في الطقس:

البائع يعرفهم بالاسم، يعرف كيف يحب كل واحد منهم قهوته، وكيف يضحكون، وكيف يختصرون الصباح قبل زحمة الحياة. لو جاء تطبيق رقمي ليبيع لهم القهوة بسرعة، قد يربح بعض الوقت... لكنه سيخسر الطقس. والناس، حين يختارون، لا يختارون الأسرع دومًا... بل الأصدق.

ولذلك، فإن الشركات التي تفهم العادة لا تقتحم السوق، بل تتسلل إليه برفق. تراقب، تتعلم، تنتظر اللحظة التي يمكن فيها أن تضيف لا أن تهيمن. وحين تضيف، لا تُشعر الناس أنهم غيّروا حياتهم، بل تجعلهم يعتقدون أن هذا المنتج، هذا الشعار، هذا الطقس... كان هناك دومًا، ينتظر فقط أن يُلاحظ.

كم من حملة تسويقية عظيمة بدأت بسؤال بسيط: "كيف يعيش هؤلاء الناس حقًا؟" لا كيف يريد المسوّق أن يراهم، ولا كيف تُظهِرهم الدراسات، بل كيف يعيشون فعلًا؟ من هنا تُكتب القصص، ومن هنا يبدأ التأثير الحقيقي.

ما زلنا لم نصل إلى الخلاصة... لأن العادات لا تنتهي، بل تتكاثر، تتغير، تُورَّث، وتُتحدّى أحيانًا. والمُسوق الذكي ليس من يعرف كيف يصنع

ضجة، بل من يعرف متى يصمت ليستمع، ومتى يتحرّك بخفة في زحمة الطقوس اليومية ليترك أثرًا لا يُمحى.

كل خطوة نخطوها في الأسواق، كل منتج نحمله، كل إعلان نحفظه عن ظهر قلب... وراءه عادة ما. ووراء كل عادة، ذاكرة، ومكان، وصوت، ووجه. من يفهم هذه العناصر، لا يبيع فقط... بل يُصبح جزءًا من القصة

لكن من لا يفهمها، حتى لو امتلك أقوى الأدوات، قد يسقط في أول تجربة.

كما حدث ذات مساء رمادي في طوكيو، أطلقت شركة "بيبسي" إعلانًا جديدًا كان من المفترض أن يكون ضربة الموسم. الإعلان مبهر: ألوان، حيوية، نجم عالمي، و إيقاع موسيقي جذّاب. لكنّ الحملة سقطت كما يسقط شيء لا يعرف الأرض التي يحط عليها. لم تفهم "بيبسي" أن الياباني لا يُحب من يرفع صوته أكثر من اللازم، ولا من يحاول أن يفرض عليه مشهدًا صاخبًا في مجتمع يُقدّس الانسجام. في ثقافة تعتبر "الهدوء" فضيلة، و"التلميح" أقوى من التصريح... بدا الإعلان وقحًا، مستفزًا، وكأنّه اقتحم البيوت بلا إذن.

ما لم تفهمه "بيبسي" آنذاك هو أن العادة ليست مجرد سلوك... بل احترام. احترام لما تعلّمه الناس من أمهاتهم و آبائهم، احترام لما يسكن في لا وعيهم من طقوس وتقاليد غير مكتوبة. وحين تتجاهل هذا، حتى أعظم الحملات تنهار بصمت.

في المقابل، دعنا نذهب إلى بلدة صغيرة في كينيا. حيث أطلقت شركة "سافاريكوم" – وهي شركة اتصالات – خدمتها الجديدة "M-Pesa"، لتحويل الأموال عبر الهاتف. فكرة بسيطة، لكنهم لم يبيعوها على أنها اختراع. بل تسلّلوا إلى العادة.

ذهبوا إلى القرى، وتحدثوا إلى النساء اللواتي يبعن في السوق، وسألوهن كيف يرسلن النقود لأقاربهن في المدينة. اكتشفوا أن كثيرًا من الأموال تُرسل مع سائق الحافلة، أو مع أحد الجيران. مخاطرة، وتأخير، وفقدان أحيانًا. فقالت لهم سيدة عجوز: "لو أقدر أبعثها من تليفوني، كان أفضل من قلقي كل أسبوع." عندها فقط، فهموا المدخل الحقيقي.

لم يُطلقوا خدمة تقنية باردة، بل قدّموا "راحة البال" كمنتج. تحدّثت الحملات عن "الطمأنينة"، عن "الأمان"، عن أن "أمّك تعرف أنك

أرسلت، وهي مطمئنة من لهفة الانتظار." دخلت M-Pesa السوق كأنها عادة قديمة... فقط جرى تحديثها بلغة الناس.

ثم لننظر إلى "كوكاكولا" في المكسيك. بلد يعشق السكر، ويقدّس الأعياد. جاءت الشركة بإعلانات لا تتحدث عن المنتج، بل عن الطقوس. عن لحظة العائلة حول المائدة، عن الضحكة، عن الصوت الأول لفتح الزجاجة، وكأنه إعلان بدء الاحتفال. لم يبيعوا مشروبًا، بل باعوا ذاكرة. كوكاكولا فهمت أن الزجاجة لا تُفتح فقط للعطش... بل لأننا نحتاج أحيانًا سببًا لنبدأ الفرَح.

في الهند، استخدمت شركة "هندستان يونيلفر" حيلة مختلفة. بدلاً من التركيز على منتجاتها وحدها، ذهبت إلى العادة الأعمق: كيف تبدأ النساء نهارهن. وجدت أن كثيرًا من النساء في القرى يُغنين أثناء غسل الملابس. فأطلقت إعلانًا فيه سيدة تغسل، وتغني، وتمرّ بها الجارات فينضممن إلى اللحن. الإعلان لم يُظهر جودة الصابون فقط... بل قدّم لحظة تضامن، لحظة فيها دفء، فيها حميمية. الصابون هنا لم يكن "منتجًا"... بل مدخلًا لصباحٍ أفضل.

هكذا، لا تحتاج أن تصرخ لتُسمع، ولا أن تهر لتُحَب. أحيانًا، كل ما تحتاجه هو أن تفهم: من هؤلاء؟ كيف يعيشون؟ ماذا يحبّون؟ وما الذي لن يغيروه أبدًا... حتى لو تغيّر العالم؟

فهم العادات ليس ترفًا، بل ضرورة. لأنه في زمن تتشابه فيه المنتجات، لا يعود الفرق في المذاق أو في اللون... بل في الإحساس الذي يتركه في القلب. الإحساس بأنك لست غريبًا... بل واحد منهم.

و في جنوب إفريقيا، حيث التاريخ لا يُروى فقط، بل يُتنفّس، قدّمت إحدى العلامات التجارية المحلية للملابس إعلانًا استثنائيًا. لم يعرضوا منتجهم على أنه "ملابس أنيقة" أو "جودة عالية"، بل تحدثوا عن الانتماء. كانت الحملة تحمل عنوانًا بسيطًا: "ما ترتديه ليس ما تملك... بل ما تحكيه." استعرض الإعلان قصصًا لأشخاص يرتدون السترات نفسها: شاب في السهول، أم في المدينة، عامل منجم، وطالبة جامعية. السترة لم تغيّر مصيرهم، لكنها جمعتهم في شعور خفي بأنهم ينتمون إلى قصة أكبر.

نجاح الحملة لم يكن لأنها قوية بصريًا، بل لأنها فهمت شيئًا عميقًا: في مجتمع خرج من نظام الفصل العنصري، الزي لم يعد فقط مظهرًا... بل فعل مقاومة، وإعادة بناء لهوية جديدة.

ولنعد إلى الشرق قليلًا، إلى لبنان. أرادت شركة عطور أوروبية كبرى أن تدخل السوق اللبناني بإعلان عالمي فيه عارضة أزياء تمشي على البحر. لكن الإعلان فشل. لم يتجاوب الناس، ولم يشعروا أن المنتج يعنيهم. فكروا في تغيير الصورة، ثم توقّفوا وسألوا: ما الذي يجعل العطر محبوبًا هنا؟ .... الجواب جاء من امرأة خمسينية قالت ببساطة: "العطر هو الذاكرة. هو ريحة أمي وهي تودعني، هو حضن أول حب، هو العيد."

وهكذا، عاد الفريق وصوّر الإعلان في بيت لبناني قديم، فيه شجرة ياسمين، وفيه أم تُعطر ابنتها قبل أن تخرج، ثم تعود الرائحة في نهاية اليوم وتملأ البيت. الإعلان الجديد لم يُبهر... لكنه أبكى. ونجح، لأنهم قرروا أن يسمعوا لا أن يفرضوا.

في البرازيل، استخدمت شركة أحذية محلّية طريقة ذكية أيضًا. لم تروّج لمنتجها بأنه مقاوم للماء أو طويل العمر. بل طرحت سؤالًا في الشوارع:

"في أي حذاء رقصت أول رقصة سامبا في حياتك؟"

أجوبة الناس صارت محتوى الحملة وكل قصة كانت إعلانًا وكل ذكرى صارت سلعة لم يشترِ الناس الأحذية فقط... بل اشتروا احتمال الذاكرة القادمة.

أما في السعودية، فقد حاولت شركة أوروبية للمياه الغازية أن تدخل السوق بحملة تعتمد على الفكاهة، كما تفعل في أمريكا. لكن المزحة لم تُفهم، والضحكة لم تُولد، والإعلان حُذِف سريعًا. السبب؟ أنهم لم يفهموا أن الفكاهة عادة ثقافية، وليست لغة عالمية. ما يُضحكك قد لا يُضحك غيرك، وما يُدهشك قد يُزعج الآخر.

والمثل الشعبي يقول: "ما يُضحك أهل بلد، قد يُغضب أهل آخر."

أحيانًا، لا يحتاج المسوّق، أو الكاتب، أو الفنان، إلى أكثر من أن يصمت قليلًا... أن يترك وراءه العروض التقديمية، والإحصاءات، والنظريات، ويجلس ببساطة في مطبخ مع أمّ تُحضّر فطورها، أو يتمشّى في سوق شعبي تفوح منه رائحة الحياة، أو يطرح سؤالًا بريئًا على طفل: "ما الذي يجعلك تحب هذه اللعبة دون غيرها؟" "ما الذي يدفعك لتشتري من هذا الدكّان، دون سواه؟" "ما الذي يربطك بكوب الشاي ذاته كل

صباح؟" لأن الإجابات التي تخرج من القلب... هي نفسها التي تفتح الأبواب المغلقة. هي التي تُرشدك إلى مكان لا تصله بالحسابات وحدها: قلب الإنسان.

لكن... أحيانًا لا تكون العادة ما نعتقده بل ما لا ننتبه إليه. العادات ليست فقط تلك الطقوس الواضحة التي نكرّرها كل صباح، بل هي الطريقة التي نردّ بها على التحية، نُعدّ بها فنجان قهوة، نغلق بها الباب، أو ننتظر بها في طابور طويل دون أن نشكو. السلوك ليس قرارًا مفاجئًا... بل هو طريق طويل بدأ بخطوة غير مرئية. حين تشتري من بائع دون أن تفكّر، أو تختار نفس الطاولة في المقهى، أو تنزعج من إعلان لمجرد أنه لا يشبهك... فأنت لا تتصرّف بعشوائية. بل تتصرّف من عمق العادة.

ولهذا، تفشل كثير من الأفكار المعلّبة لأنها تأتي من الخارج، وتحاول الدخول من النوافذ. لكن العادات لا تُخترق. بل تُفهم. كل مجتمع لديه إيقاعه. بعض الشعوب تحبّ الكلام، وبعضها تحبّ الصمت. بعضهم يرتاح للشرح، وبعضهم لا يثق إلا بالإشارة. ما يصلح في مدينة صاخبة، قد لا يجد صدى في قرية هادئة. العادات لا تشرح نفسها. إنها تختبئ

خلف كلمة بين الأصدقاء لا تُترجم، خلف "هزّة رأس" لا يعرف معناها إلا من نشأ داخلها.

والسوق، في نهاية الأمر، ليس مجرد مكان للبيع... بل مرآة لهذه العادات. ليس المهم كم إعلانًا تكتب، بل كم حياةً تشبه تلك التي تُعرض أمام الناس كل يوم. ليس المهم كم سلعةً تروّج، بل كم مشهدًا يمرّدون أن يشعر به المتلقي على أنه إعلان... لأنه ببساطة يشبهه. وهكذا، لا تصبح العادة فقط دليلك لفهم الناس، بل دليلك لصنع شيء يحترمهم، ويمنحهم ما يحتاجونه حقًا... لا ما يُقال لهم إنهم يحتاجونه.

وهنا تمامًا، تبدأ الأسئلة الأعمق في الظهور. حين نبحث في كل هذه العادات، نجد أننا لا نتحدث فقط عن تصرفات بشرية، بل عن توقّعات. العادة ليست مجرد تكرار لسلوك، بل هي توقّع داخلي لما سيحدث، وكيف سيحدث، ومتى سيحدث. الإنسان بطبيعته يحب التنبؤ، يحب أن يعرف ما الذي سيحدث في اللحظة التالية، وهذا هو السبب وراء تفضيله للروتين. لماذا يشعر البعض بالراحة عندما يجد طعامه المفضل في نفس المكان؟ لأنه يتوقع أن يكون هناك، في مكانه

المعتاد، ويشعر بأنه في "مكانه". نحن لا نشتري فقط المنتجات، بل نشتري التجربة المتوقعة، نشتري الطمأنينة التي تعطيها العادة.

الناس لا يحبون المفاجآت الكبيرة في حياتهم اليومية، وعندما تُقدّم لهم علامة تجارية مفاجأة غير متوقعة، قد يشعرون بأنهم ضُللوا. العادة تجعلنا نشعر بالثقة في قراراتنا اليومية، والأهم من ذلك، أنها تجعلنا نشعر بأننا نفهم العالم. فإذا قدّم لك أحدهم طعامًا، ثم أخبرك أنه ليس كما تتوقعه، فإن أول رد فعل لك غالبًا سيكون رفضه، حتى وإن كانت النكهة أفضل. ذلك ببساطة لأنك اعتدت على شيء آخر، والخلل في العادة يجلب لك حالة من الارتباك الداخلي الذي لا تستطيع تجاوزه بسهولة.

لكن العادة ليست مجرد راحة أو طمأنينة فحسب، بل هي سلاح ذو حدين. فهي من ناحية تتيح لك التحرر من الحاجة إلى اتخاذ قرارات متكررة، لكنها من ناحية أخرى قد تصبح عائقًا. تخيل شخصًا يأخذ نفس الطريق كل يوم إلى العمل، مهما كانت الظروف أو التغيرات التي قد تحدث في الطريق. هذا الشخص ربما يكون مخلصًا لعادة معينة، لكنه أحيانًا يضل الطريق دون أن يشعر، لأنه ظل يكررنفس الفعل على

مدار سنوات، دون أن يفتح عينيه للفرص أو التغيرات الجديدة التي قد تطرأ عليه. وهذا هو بالضبط السبب في أن العادات قد تقودنا في الاتجاه الخاطئ إذا لم نكن حذرين في التعامل معها.

يأتي هنا دور الشركات والعلامات التجارية التي تستطيع أن تكسر هذه العادة، ولكن بشكل ذكي. هي لا تُلغي العادة، بل تُعيد تشكيلها. تأخذ الزبون من ممره المعتاد إلى مكان آخر يعتقد أنه أكثر راحة، أو حتى أكثر إثارة. في كثير من الأحيان، نرى العلامات التجارية التي تستخدم مفاهيم العادة لتكسب الثقة، لكن في الوقت نفسه تبتكر شيئًا جديدًا داخل هذا الفضاء المألوف. هذا بالضبط ما فعلته "آبل" مع هواتفها الذكية. هي لم تخترع الهاتف المحمول، لكنها أخذت العادة القائمة على استخدام أجهزة الهواتف، ثم قدمت شيئًا مختلفًا تمامًا من حيث التصميم والتجربة. لم تكن مجرد هواتف ذكية، بل كانت طريقة جديدة لاستخدام العادة نفسها. هذا هو الفرق بين تغيير العادة وبين تحسينها: لم تُلغَ العادة، بل أصبحت أفضل.

ما يجعل هذا الفصل مثيرًا هو أننا لا نتحدث عن مجموعة من العادات فحسب، بل نناقش كيف تُترجم العادة إلى نظام حياتي كامل. عندما

يدخل الشخص متجرًا لشراء منتج، هو لا يشتري فقط هذا المنتج، بل يشتري التجربة الكاملة التي ترتبط به. كيف يشعر عند دخوله المتجر؟ كيف يعامله البائع؟ كيف يتم تقديم المنتج؟ كلها تفاصيل تترابط في دماغه مع العادة اليومية التي تؤثر في قراراته.

نعود الآن إلى أكثر ما يميز العادة: إن كل عادة تختصر جزءًا من هوية الإنسان. هي ليست مجرد فعل مكرر، بل هي اختصار لثقافة، لتاريخ، لتقاليد، ولمعتقدات. تأمل في عادات الناس في تناول الطعام، في تحضير القهوة، في الوقت الذي يختارون فيه أن يرتاحوا أو يعملوا. كل شيء مرتبط بما نشأوا عليه. ولكن ما الذي يحدث عندما تكون العادة غير مدروسة؟ عندما تكون الشركات أو الحملات التسويقية قد أغفلت السياق الثقافي لهذه العادات؟ في بعض الأحيان، يكون هذا الإغفال مكلفًا للغاية. إعلانات وعروض سقطت فقط لأن العلامة التجارية لم تُدرِك كيف تُركّب العادة مع المكان والزمن.

نحن لا نعيش في عالم واحد فقط. نحن نعيش في العديد من العوالم الصغيرة التي ترتبط بكل عادة وكل تفصيل في حياتنا اليومية. وعندما تترك هذا العالم الصغير وتدخل عالمًا آخر، تكون كل عادة تحتاج إلى

أن تُدرَس، أن تُفهم، أن تُحترم. وفقط عندما تتعلم العادات بشكل عميق، ستكتشف أن وراء كل قرار صغير، كل سلوك، كل ابتسامة، هناك عادة تكشف لك سلوكًا شرائيًا مدفونًا. العادة ليست مجرد تكرار... هي رحلة بطيئة إلى النفس البشرية.

لكن الأجمل في العادات، أنها لا تُورث وحدها... بل تُدرَّب وتُتَعلم. ليست فقط امتدادًا لما فعله الأجداد، بل أحيانًا تكون رد فعل لما لم يفعلوه. ففي بعض المجتمعات، تنشأ العادة من الندرة، لا من الوفرة. من الحاجة، لا من الرفاه. وهنا تظهر نوعيات جديدة من العادات، تكتسب معناها من السياق الزمني والاقتصادي والاجتماعي الذي وُلدت فيه. خذ على سبيل المثال عادة الادخار في مجتمعات ما بعد الأزمات: العادة لم تكن رفاهية... بل ضرورة تحوّلت إلى فلسفة حياة.

وهذا ما يجعل العادة أداة تحليلية مذهلة في التسويق. حين تدخل سوقًا جديدًا، لا تسأل أولًا: "ما الذي يشتريه الناس؟" بل اسأل: "لماذا يشترونه؟ وكيف؟ ومتى؟" ابحث في مواقيت السوق، لا في الأرقام. لاحظ متى تمتلئ عربات التسوق ومتى تُترك فارغة. راقب كيف يتبادل الناس النقود، كيف يتفاوضون، ما الذي يهمّهم في المنتج: هل هي

العبوة؟ السعر؟ اللون؟ السمعة؟ أحيانًا، المنديل الورقي قد يُستخدم أكثر لمسح العرق في الحقول، لا لمسح الأيدي في المطاعم... فتخيّل كيف يغيّر ذلك تصميم حملتك؟

وفي عالمنا المعاصر، العادة أصبحت معقّدة. لم تعد فقط مرتبطة بمكانٍ واحد، بل بالتنقل، بالسفر، بالهجرة، بالهوية المتعددة. الشاب الذي يعيش في باريس، ويأكل كما كان يفعل في دمشق، ويشتري إلكترونياته كما اعتاد في الخليج، ويتسوّق كما تعوّد في لندن... هو ليس مستهلكًا سهل القراءة. هو خريطة متداخلة من العادات، تتقاطع في داخله وتتعارك أحيانًا. لذلك، أصبحت العادة لا تنتمي فقط إلى الجغرافيا، بل إلى التجربة الشخصية. إلى الذاكرة.

وهنا، تبدأ مهمة التسويق الذكي: أن تصغي إلى هذه الذاكرة دون أن تقتحمها. أن تُقدّم للناس منتجًا لا يشعرهم بأنهم تغيّروا، بل يجعلهم يشعرون بأنهم ما زالوا أنفسهم... فقط أكثر راحة. أن تضع إعلانك في منتصف الطريق بين الجديد والمألوف، بين الحاجة والحنين، بين المفاجأة والطمأنينة. هذا هو التوازن الذهبي: أن تقول للناس ما يعرفونه مسبقًا، لكن بطريقة لم يتوقعوها.

ولعل أجمل ما في العادة، أنها قادرة على التكيّف... لكنها تقاوم أن تُهان. بإمكانك أن تغيّر في تفاصيلها، أن تطوّرها، أن تعيد تقديمها... لكنك لا تستطيع أن تستخف بها. فالعادة، في أعين أصحابها، ليست مجرّد تصرّفٍ يومي، بل شيفرة كرامة. شيء صغير جدًا... لكنه يحمل في طيّاته أجيالًا من الذكرى، والخبرة، والانتماء.

لهذا، حين تفهم العادة، أنت لا تفهم السوق فقط... بل تفهم الإنسان. تفهم كيف يرى نفسه، كيف يحبّ أن يُعامل، وما الذي يخيفه، وما الذي يقرّبه من الأشياء. وهنا بالضبط، يولد التسويق الحقيقي... لا في العروض، ولا في التخفيضات، بل في لحظة الصدق التي يشعر بها الزبون حين يرى منتجك، ويقول في داخله: هذا يشبهني.

لأنه حين يشعر أن ما أمامه يشبهه، لا يُحلّله، لا يُناقشه، لا يُدقّق فيه... بل يرحّب به، كما نرحّب بوجهٍ مألوف في زحامٍ غريب. لكن الوصول إلى تلك اللحظة – لحظة "هذا يشبهني" – ليس سهلًا كما يبدو. فهو ليس شعورًا يُصنع بالإعلانات وحدها، ولا بالأسعار، ولا حتى بالجودة فقط. بل هو ناتج تراكمي لعلاقة طويلة بين العادة، والذاكرة، والاحترام. لأن

العادة ليست مجرد عادة. هي انعكاسٌ داخلي لهويتنا، لصورتنا عن أنفسنا، ولِما نُحبّ أن نظهر به أمام العالم.

في بعض المجتمعات، يكون الكوب الخزفي العادي هو عنوان الراحة. في أخرى، تكون الزخارف، والألوان الفاقعة، والتفاصيل الباذخة هي ما يمنح الإحساس بالاحتفاء. وفي كل مكان، العادة تقول شيئًا. تحكي عن الناس دون أن تنطق. ولهذا، من أراد أن يدخل هذه المساحة، لا بد أن يتحدث بلغة صامتة. لا يفرض نفسه، بل يعرض ذاته، ويترك للناس أن يقرروا: هل هذا نحن؟ أم مجرد ضيفٍ لا يعرف قواعد المكان؟

ولذلك، أعظم منتج ليس الذي يبيع... بل الذي يُفهم. وأعظم إعلان، ليس الذي يُدهشك، بل الذي يربّت على كتفك دون أن تشعر، ويقول لك، بهدوء: "أنا كنت هنا... دائمًا."

ولعلّ أكثر ما يُدهشك حين تراقب الناس في تفاصيلهم الصغيرة، أن كثيرًا من اختياراتهم لا تأتي من المفاضلة بين الأفضل والأسوأ، بل من شعور بالارتياح، بالألفة، بأن هذا الخيار "ينتمي إليهم". نحن لا نختار القميص فقط لأنه جميل، بل لأننا تخيّلنا أنفسنا فيه، لأن لونه يُشبه شتاءً عشناه، أو ملمسه يُذكّرنا بكتفٍ دافئٍ ذات مساء بعيد. نحن لا

نفضّل متجرًا دون سواه لأنه الأقرب أو الأرخص فقط، بل لأننا حفظنا طريقه، لأن بائعه يردّ التحية بنفس النبرة، لأن رائحته لم تتغيّر.

وهنا بالضبط، تكمن قوّة العادة: في خلق روابط خفية بيننا وبين الأشياء. هذه الروابط لا تُقاس بالأرقام، ولا تُختصر في الجداول، لكنها تتحكم في قراراتنا بطريقة لا ننتبه إليها. ولهذا، فإن أعظم ما يمكن أن تقدّمه علامة تجارية للناس، هو الشعور بأنهم لم يضطروا إلى الاختيار... بل وجدوا أنفسهم يُكرّرون الشراء كما يُكرّرون السلام على جارهم صباحًا.

فالعادة في نهاية الأمر ليست فعلًا نكرّره فقط، بل شعورًا بالانتماء لما نكرّره. وحين ينجح منتج أو خدمة في زرع هذا الشعور، يصبح جزءًا من حياة الناس دون أن يحتاج إلى تذكير، دون أن يرفع صوته، دون أن يلوّح لهم بإعلانات صاخبة. يكفي أن يُشبههم... ليبقوا معه

وهذا "الشبه" لا يُبنى صدفة، بل يبدأ من فهم عميق للطبيعة النفسية لكل سوق، لكل مجتمع. ففي بعض الأماكن، يُشبه السوق مجلسًا مفتوحًا، والدخول إليه أشبه ما يكون بزيارة بيت قديم يعرفك ويعرف عاداتك. هناك، لا تُمدّ يدك نحو السلعة قبل أن تتبادل التحية، ولا

تتفاوض قبل أن تتحدث عن العائلة، ولا تُنهِ الشراء دون مجاملة صادقة. أما في أسواق أخرى، أكثر صرامة أو سرعة، فالهدوء والدقة هما مفتاح الثقة. الزبون يدخل وهو يعرف ما يريد، يختار، يدفع، ويخرج دون حديث إضافي. لا وقت هناك للمجاملات، بل للنتائج.

ولذلك، فإن العادة لا تحدد فقط "ماذا نشتري"، بل "كيف نحب أن نشتري". هل نحب أن يُرحّب بنا بابتسامة؟ أن تُقدم لنا السلعة وكأنها هدية؟ أن يُقال لنا ما نحب سماعه؟ أم نفضّل الصمت، ونُقيّم البائع بمدى احترامه لخصوصيتنا؟ كل هذه ليست مجرد تفاصيل في التجربة... بل ملامح عميقة في الشخصية الجماعية لمكانٍ كامل.

ولأن النفس البشرية تنجذب لما يشبهها، تصبح الأسواق المحلية انعكاسًا لأنماط نفسية متكررة. هناك شعوب ترى في "العرض الخاص" فرصة سعيدة، وشعوب أخرى تشكّ فورًا في نو اياه. هناك أماكن تؤمن أن الكلمات العاطفية في الإعلان تمسّ القلب، وأخرى تراها محاولة رخيصة للتلاعب بالمشاعر. حتى الألوان، والموسيقى، وترتيب المنتجات على الرفوف، لها معنى في عالم العادة.

كل ذلك يخبرنا أن العادات ليست فقط بوابة لفهم السلوك الشرائي، بل مفتاح للدخول إلى عمق التجربة، إلى المساحة التي يصنع فيها الإنسان قراراته دون وعي ظاهر. ومن أراد أن يدخل هذه المساحة، فعليه ألا يقتحمها كغريب، بل أن يطرق بابها بلطف... كما يفعل أحد أهل الدار حين يعود، فلا يحتاج إذنًا للدخول، لأنه ببساطة، يشبه المكان.

وفي نهاية هذا الفصل، لا يعود السؤال: كيف نُغيّر سلوكًا استهلاكيًا؟ بل يصبح: هل فهمناه أصلًا؟ لأن العادة لا تبدأ من قرار، بل من شعور، من دفء اللحظة، من حركة يد تعيد ترتيب الأشياء كما فعلتها بالأمس، وكما ستفعلها غدًا.

لقد رأينا في هذا الفصل كيف أن العادة ليست تكرارًا عشوائيًا، بل هي لغة الناس حين لا يتحدثون، وصورتهم الصامتة حين لا يفسّرون. ولأنها كذلك، فإن كل محاولة لتبديلها أو دفعها أو التأثير فيها، لا يمكن أن تكون ناجحة إلا إن جاءت برفق، بفهم، وباحترام لما تعنيه في العمق، لا فقط على السطح.

الفكرة لا تنجح لأنها "جديدة"، بل لأنها مألوفة بما يكفي لتطمئننا، وغريبة بما يكفي لتجذبنا. والإعلان لا ينجح لأنه ذكي، بل لأنه صادق. لأن الناس، ببساطة، لا ينجذبون إلى من يصرخ في وجوههم، بل إلى من يسير بجانبهم خطوة خطوة، يضحك حيث يضحكون، ويصمت حيث يصمتون.

والعادة، كما رأينا، تصنع السوق، وتصنع الولاء، وتصنع "البيت" الذي يشعر فيه المستهلك أنه ليس زبونًا... بل شخصًا مفهومًا، ومُحترمًا، ومُرحّبًا به.

وهكذا، حين ننهي هذا الفصل، لا نختمه بنقطة... بل بنظرة أطول نحو كل ما تعلّمناه: أن وراء كل عادة هناك إنسان، ووراء كل سلوك هناك قصة، ووراء كل قصة هناك مفتاح... المفتاح ليس في الإقناع، بل في الفهم.

الخاتمة

لم يكن هذا الكتاب مجرد جولة في عادات الشعوب، ولا مجرد رصدٍ للطقوس والملامح اليومية التي يكرّرها الناس. لقد كان رحلة لفهم الإنسان... لأن خلف كل عادة، هناك حكاية. وخلف كل حكاية، هناك شعور. وهذا الشعور، هو ما يوجّه قراراتنا، ذوقنا، وشرائنا.

من شرق آسيا حيث تُقال الأشياء بالإشارة، إلى أوروبا التي تختصر العادة في المواعيد والدقة، ومن دفء أمريكا اللاتينية إلى حميمية المجتمعات العربية، ومن قِدم القارة الإفريقية إلى تنوّعها اليومي... رأينا كيف تصنع العادة يوم الناس، وتشكّل استجابتهم لكل شيء يعرض عليهم.

لكن الأهم: فهمنا كيف تتسلّل هذه العادات إلى السلوك الشرائي. لماذا يشتري أحدهم منتجًا دون غيره؟ لماذا ينجذب لإعلان، ويصدّ آخر؟ لماذا يشعر بالراحة من ماركة ما، وكأنه يعرفها منذ الطفولة؟

لأن التسويق الناجح لا يبدأ من المنتج... بل من الإنسان. من عاداته. من ذاكرته. من لحظة صباحه، ومن طقوس عشائه، ومن فنجان قهوته. ومن لا يفهم هذه اللحظات، لن يستطيع أن يصنع رسالة تصل.

لهذا، لم يكن هذا الكتاب فقط عن الشعوب... بل كان عن كل من يسوّق لهم. عن كل من يصنع فكرة أو منتجًا أو إعلانًا، ويريد له أن ينجح في قلوب الناس قبل محافظهم.

فهم العادة هو بداية التسويق الحقيقي. لأنه لا يوجد شيء أصدق من أن تقول للناس: "أنا أشبهكم" وحين تُشبههم... لن يختاروا غيرك.

فالعادات ليست ما نكرّره فقط... بل ما نمنحه الثقة. ومن يفهم العادة، يملك المفتاح إلى القلب، والسوق معًا.

عادات حول العالم

ليست كل الرحلات تحتاج إلى جواز سفر... أحيانًا، كل ما تحتاجه هو فضول.

فضول لمعرفة لماذا يرفض الياباني النظر في عينيك، ولماذا يشرب المغربي شايه في كؤوس صغيرة، ولماذا يُهدي التايلاندي ابتسامته حتى وهو غاضب.

هذا الكتاب لا يدور حول العادات فقط، بل عن تلك الخيوط الخفية التي تربط بين الإنسان وما يفعله دون أن ينتبه.

عن الحركات الصغيرة التي تكشف عن تاريخ طويل، والطقوس التي تحمل بين طيّاتها معاني أكبر من ظاهرها.

هنا، نكتشف أن التسويق الحقيقي لا يبدأ من السوق... بل من العادة.

وأن سر النجاح ليس في المنتج، بل في احترام اللحظة التي يُقدَّم فيها.

رحلة حول العالم، من آسيا إلى أمريكا اللاتينية، ومن إفريقيا إلى العالم العربي...

لا لتكتب الملاحظات فقط، بل لتفهم النفس البشرية.

"لتتعلّم كيف يُصبح الفهم أداة تسويق... والعادة أقصر طريق إلى القلب."

تأليف:

محمد جميل